يومُ داحِسَ والغَبْراء



دار العِلم للمَلايين

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

أيام العرب

(٣)

يوم داحس والغبراء

بقلم
خليل هنداوي

دار العلم للملايين

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

أيام العرب
(٣)

يوم داحس والغبراء

بقلم
خليل هنداوي

دار العلم للملايين

زُهَيْرٌ سَيِّدُ ٱلعَرَب

لم يَكُنْ يَوْمُ داحِسٍ والغَبْراءِ بِيَوْمٍ واحِدٍ ، وَإِنَّما هُوَ أَيّامٌ تَعاقَبَتْ سِنِينَ ، شَغَلَتِ العَرَبَ في حَرْبٍ طويلَة .

أَمَّا ظاهِرُ الأَمْرِ فَيَعُودُ إلى خِلافٍ عَلى رِهانٍ بَيْنَ فَرَسَيْنِ ، هُمَا دَاحِسٌ والغَبْراء . وَأَمَّا السَّبَبُ الحَقِيقيُّ فَيَعُودُ إلى عَداوَةٍ وَثَأْرٍ وَأَحْقادٍ .

كانَ زُهَيْرُ العَبْسِيُّ سَيِّداً لِقَبِيلَةِ هَوَازِن ، وكانَتْ لا تَراهُ إلّا سَيِّدَهَا المُطاعَ ، وَهِيَ ، يَوْمَئِذٍ ، قَبِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ ، ذَلِيلَةٌ ، لا خَيْرَ فِيها . وإنَّما رِجالُها يَرْعَوْنَ الشَّاءَ في الجِبال .

فَإذَا كانَتْ أَيَّامُ عُكاظٍ في مَكَّةَ ، أَتاها زُهَيْرُ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا ٱلنَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، فَتَأْتِيهِ هَوازِنُ بِٱلضَّرِيبَةِ ٱلَّتي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ ، فَيَأْتُونَهُ بِٱلسَّمْنِ وٱللَّبَنِ وٱلْغَنَمِ ، لا يَطْلُبُونَ إلَّا رِضاه .

وَذاتَ يَوْمٍ ، أَتَتْهُ عَجُوزٌ مِنْ هَوازِنَ بسَمْنٍ في زِقٍّ صَغِيرٍ ، وَٱعْتَذَرَتْ إلَيْهِ ، وَشَكَتْ جَدْبَ السِّنِينَ الَّتي تَتَابَعَتْ على ٱلنَّاسِ ، فَذاقَهُ فَأَنْكَرَ طَعْمَهُ ، فَرَماهُ أَرْضاً وَصَفَعَ ٱلْعَجُوزَ ، فَٱسْتَلْقَتْ على قَفَاها ، فَغَضِبَتْ

مِنْ ذٰلِكَ هَوازِنُ ، وَأَضْمَرَتِ الشَّرَّ لِزُهَيْر . زِدْ عَلى ذٰلِكَ ما كانَ في صَدْرِها مِنَ ٱلْغَيْظِ وَٱلْعَداوَة .

كانَ أَكْثَرُهُمْ غَيْظاً خالِدُ بْنُ جَعْفَر ٱلَّذي حَضَّ قَوْمَهُ عَلى ٱلْقِتال ، وَقال :

ــ وَاللهِ ، لَأَجْعَلَنَّ ذِراعي وَراءَ عُنُقِهِ ، حَتّى أَقْتُلَهُ ، أَوْ يَقْتُلَني .

وَلَمّا سَمِعَ زُهَيْرٌ هٰذا ٱلْقَوْلَ حَقَّرَ خالِداً وَسَبَّهُ ، فَقال خالدٌ :

ــ أَللّٰهُمَّ أَمْكِنْ يَدي هٰذِهِ النَّبْلَةَ القصيرةَ من عُنُقِ زُهَيْر ، ثُمّ أَعِنّي عَليه .

فَقالَ زُهَيْر :

ــ أَللّٰهُمَّ أَمْكِنْ يَدي هٰذِهِ ٱلْبَيْضاءَ من عُنُقِ خالِدٍ ، ثُمَّ خَلِّ بَيْنَنا .

فَقالَتْ قُرَيْشٌ ، وَكانَ ٱلْكَلامُ أَمامَهُم :

ــ هَلَكْتَ ، وَٱللّٰهِ ، يا زُهَيْر !

فقال زُهَيْر :

ــ انَّكُمْ وَاللهِ ، ٱلّذينَ لا عِلْمَ لَكُم .

خالِدٌ يَتَتَبَّعُ الأَثَر

إِنْتَقَلَ زُهَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَعَهُ أَهْلُهُ ، يُريدُ مَواضِعَ ٱلْماءِ وَٱلْعُشْبِ ، وَبَنُو هَوازِنَ قَريبٌ مِنْهُمْ وَلا يَشْعُرونَ بِهِم .

وَكانَتْ ٱمْرَأَةُ زُهَيْرٍ مِنْ هَوازِنَ ، فَمَرَّ بِها أَخوها ٱلْحارِثُ ، فَقالَ زُهَيْرٌ لِبَنيهِ :

ـــ إِنَّ هٰــذا ٱلحِمَارَ جَاءَ يَتَجَسَّسُ عَلَيْكُمْ ، فَأَوْثِقُوهُ بِالْحِبال .

فَقَالَتْ أُخْتُهُ لِبَنِيها :

ـــ أَيَزُورُكُمْ خالُكُمْ، فَتُوثِقُوهُ وَتُحْرِمُوهُ ؟

فَتَرَكُوهُ ، وَأَخَذُوا مِنْهُ يَمِيناً أَلَّا يُخْبِرَ عَنْهُمْ أَحَداً .

فَخَرَجَ ٱلْحَارِثُ يَطِيرُ ، حَتَّى أَتى قَوْمَهُ ، وَوَقَفَ عَلى شَجَرَةٍ وَأَلْقَى وِعاءَ ٱللَّبَنِ تَحْتَها ، وَٱلْقَوْمُ يَنْظُرُونَ إِليه . ثُمَّ قالَ :

ـــ أَيَّتُها الشَّجَرَةُ ٱلذَّلِيلَة ! إِشْرَبِي مِنْ هٰذا اللَّبَنِ، وَٱنْظُري ما طَعْمُه ؟

فَقَالَ أَهْلُ ٱلْمَجْلِس :

ــ إِنَّ هذا رَجُلٌ مَسْلوبٌ عَقْلُهُ ، وَهُوَ يُخْبِرُكُمْ خَبَراً .

فَأَتَوهُ، وَذاقُوا اللَّبَنَ ، فَإِذا هُوَ حُلْوٌ لَمْ يَحْمُضْ بَعْدُ ، فَقَالُوا :

ــ إِنَّهُ لَيُخْبِرُنا أَنَّ عدُوَّنا قَريبٌ مِنَّا .

رَكِبَ خالِدٌ ، وَرَكِبَ مَعَهُ سِتَّةُ فَوارسَ ، لِيَنْظُروا ما ٱلْخَبَرُ ، وَتَتَبَّعوا أَثَرَ السَّيْرِ ، حَتَّى إِذا رَأَوْا إِبلَ بَني عَبْسٍ نَزَلُوا عَنِ ٱلْخَيْلِ ، فَقَالَتِ نِساءُ بَني عَبْسٍ :

ــ إِنَّا لَنَرى غابَةً مِنْ رِماحٍ بِمَكانٍ، لمْ نَكُنْ نَرَى بِهِ شَيْئاً .

ثُمَّ أَقبلَتِ ٱلرُّعيانُ فأَخبَروا بِمِثْلِ هذا ٱلخَبَرِ .
فَقَالَ زُهَيْرٌ، وَهُوَ يَحْتَقِرُ كُلَّ ما سَمِع :

ــ وأَيْنَ بَنو هَوازِن ؟ إِنَّهم يَرْعَوْنَ إِبِلَهُمْ في رُؤوسِ ٱلجِبال .

ثُمَّ أَقسَمَ زُهَيْرٌ لا يَتْرُكُ مَكانَه حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْس .

مَقْتَلُ زُهَيْر

كانَتْ لِزُهَيْرٍ مِظَلَّةٌ يَرْبُطُ فِيها أَفرَاسَهُ، لا يَتْرُكُها حَذَراً مِنَ ٱلحَوادِثِ . فَلَمَّا أَصبَحَ صَهَلَتْ فَرَسٌ مِنْها حِينَ أَحسَّتْ بٱلخَيْلِ ، وَهِيَ « القَعْسَاء » فَرَسُ زُهَيْر . فقالَ زُهَيْر :

ـــ ماذا أَسْمَعُ ؟ وَلِمَاذا تَصْهَل ؟

فَقَالَ ٱلْحارِس :

ـــ أَحسَّتْ بِٱلْخَيْلِ ، فَصَهَلَتْ إِلَيْهِنَّ .

وَما هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى كانَتِ ٱلْخَيْلُ تُحِيطُ بِهِ ، فَوَثَبَ زُهَيْر عَلى فَرَسِهِ ، وَهُوَ ، يَوْمَئِذٍ ، شَيْخٌ قَدْ أَسَنَّ وَضَعُفَ ، وَقَالَ لِٱبْنِهِ وَرْقَاء :

ـــ أُنظُرْ يا وَرْقَاءُ ! ماذا تَرَى ؟

فَقَالَ وَرْقَاء :

ـــ أَرى فارِساً عَلى فَرَسٍ شَقْراءَ ، يُجْهِدُهـــا ، وَيَدْفَعُها بِسَوْطِه .

فَقَالَ زُهَيْر :

ـــ لِشَيْءٍ ما يَدْفَعُ هٰذا ٱلْفارِسُ فَرَسَهُ بِالسَّوْطِ .

وَتمرَّدَتِ ٱلْقَعْساءُ عَلى زُهَيْرٍ في ٱلْجَرْيِ ، وَصَوْتُ خالِدٍ مِنْ وَرائِهِ يَهْتِفُ :

ــ لا نَجَوْتُ إنْ نَجا زُهَيْرٌ مِنْ ضَرْبَتي .

وَلَمَّا جَرَتِ ٱلْقَعْسَاءُ بِزُهَيْرٍ ، قَالَ خـالِدٌ لِصاحِبِهِ مُعَاوِيَةَ :

ــ أَدْرِكْهُ يا مُعاوِيَة !

فَأَدْرَكَهُ مُعَاوِيَةُ ، وَأَبْناءُ زُهَيْرٍ يُدَافِعونَ عَنْه .

فَصَاحَ خالِد :

ــ إطْعَنْ يا مُعاوِيَةُ رِجْلَ فَرَسِه !

فَطَعَنَ في إِحدى رِجْلَيْها ، فَٱنْخَذَلَتِ ٱلْقَعْساءُ عَنْ جَرْيِهـا ، وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ ، لا تَزالُ تَجْري ، فَقـالَ زُهَيْر :

ـــ إطْعَنْ رِجْلَها ٱلأُخْرى !

وَهُوَ يُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ ، لِتَتَساوى الرِّجْلانِ في الإِصابَةِ ، فَيُساعِدُها ذٰلكَ عَلى ٱلجَرْيِ ، فَناداهُ خالِد :

ـــ يا مُعاوِيَة ! إِيَّاكَ أَنْ تَفْعَل ! إِطْعَنْ في ٱلمَكانِ الأَوَّل !

فَعَلَ ذٰلِكَ مُعاوِيَةُ ، وَأَصابَ رُمْحُه رِجْلَها مَرَّةً ثانِيَةً فَٱنْخَذَلَتْ ، وَلَحِقَهُ خالِدٌ ، فَجَعَلَ يَدَه وَراءَ عُنُقِ زُهَيْرٍ ، وَقَلَبَهُ ، وَبَرَكَ خالِدٌ فَوْقَهُ ، وَضَرَبَ مُعاوِيَةُ رَأْسَ زُهَيْر ... وَلٰكِنَّ أَوْلادَ زُهَيْرٍ ٱسْتَطاعُوا أَنْ يَنْتَزِعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَهُوَ جَرِيحٌ . فَقالَ خالِد :

ـــ والَهْفتاه ! قَد كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّها ٱلْقاضِيَةُ .

فَقالَ مُعاوِيَة :

ـــ السَّيْفُ حَدِيدٌ ، والسَّاعِدُ شَدِيدٌ ، وَقَدْ ضَرَبْتُه

وَسَمِعْتُ السَّيْفَ قالَ : « قَبْ قَبْ » حينَ وَقَعَ بِرَأْسِهِ ، وَرَأَيْتُ عَلى حَدِّهِ سائِلاً أَبْيَضَ .

فَقالَ خالِد :

ــ بِأَبي أَنْتَ ! لَقَدْ قَتَلْتَهُ .

وَنَظَرَ بَنو زُهَيْرٍ ، فَإِذا بِالضَّرْبَةِ قَدْ بَلَغَتِ الدِّماغَ ، ثُمَّ ٱسْتَسْقَاهُمْ زُهَيْرٌ ، فَمَنَعُوهُ ٱلْمَاءَ ، وَقال :

ــ أَمَيْتٌ أَنا عَطَشاً ؟ إِسْقوني ٱلْمَاءَ ، وَإِنْ كانَ فيهِ مَوْتي .

فَلما رَأَوْا ذٰلِكَ سَقَوْهُ ، فَماتَ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّام .

الحارِثُ يَلْتَقي بِخالِد

لَمْ يَكْتَفِ خالِد ٱلعامِرِيُّ بِما فَعَلَ بَلْ جَعَلَ يُغيرُ

عَلى قَبيلَةِ ذُبْيانَ ، — وَفيهم أَهْلُ الحارِثِ بْنِ ظالِم — .
إِنْقَضَّ عَلَيْهِمْ بِرِجالِهِ ، وَهُمْ في وادٍ ، فَقَتَلَ الرِّجالَ
حَتّى أَسْرَفَ ، وَبَقِيَتِ النِّساءُ بِلا رِجالٍ ، وَكانَ ٱلْحارِثُ
ٱبْنُ ظالِمٍ يَوْمَئِذ صَغيراً .

وَكانَتْ نِساءُ بَني ذُبْيانَ ، مِنَ ٱلْعِزَّةِ والشَّرَفِ
بِمَكانٍ ، لا يَحْلِبْنَ ٱللَّبَنَ ، فَلَمَّا صِرْنَ بِغَيْرِ رِجالٍ ،
أَخَذْنَ يَطْلُبْنَ ٱلْحارِثَ ، فَيَحْلِبُ لَهُنَّ اللَّبَنَ ، وَهُنَّ
يَبْكِينَ رِجالَهُنَّ ، وَيَبْكِي ٱلْحارِثُ مَعَهُنَّ ، فَنَشَأَ عَلى
بُغْضِ خالِد . وَلَمَّا قَتَلَ خالِد زُهَيْراً ٱلْعَبْسِيَّ ٱسْتَحَقَّ
ٱلْعَداوَةَ في قَبائِلِ غَطَفانَ .

ثُمَّ مَكَثَ خالِد بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ ، زارَ بَعْدَها
ٱلنُّعْمانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ ، مَلِكَ الحِيرَةِ ، فَلَقِيَ عِنْدَهُ

ٱلْحَارِثَ بْنَ ظالِم ، وَالنُّعْمانُ يُقَرِّبُهُ وَيَسْأَلُهُ . فَحَسَدَهُ عَلى هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ ، ثُمَّ قالَ للنُّعْمان :

ـــ هٰذا ٱلرَّجُلُ لي عِنْدَهُ فَضْلٌ كَبِيرٌ ، لَقَدْ قَتَلْتُ زُهَيْراً العَبْسِيَّ ، وَهُوَ سَيِّدُ غَطَفَانَ ، فَصارَ هُوَ بَعْدَ قَتْلِهِ سَيِّدَهَا .

فَقالَ ٱلْحَارِثُ غاضِباً :

ـــ سَأَجْزِيكَ عَلى هٰذا ٱلْفَضْلِ !

ثُمَّ إِنَّ النُّعْمانَ دَعاهُما بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَمَعَهُما بَعْضُ ٱلْقَوْمِ ، وَقَدَّمَ لَهُمْ تَمْراً ، فَأَخَذَ خالِد يَأْكُلُ ، وَيُلْقي نَوَى ما يَأْكُلُ مِنَ التَّمْرِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحارِثِ ، وَٱلْحَارِثُ يَتَحَمَّلُ ذٰلِكَ صابِراً .

فَلَمَّا فَرَغَ ٱلْقَوْمُ مِنَ ٱلْأَكْلِ قالَ خالِد لِلنُّعْمان :

ـــ يا مَوْلاي ! أُنْظُرْ إلى ما بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحارِثِ مِنَ النَّوى ، فَما تَرَكَ لَنا تَمْراً إلّا أَكَلَه .

فَقالَ ٱلْحارِث :

ـــ أَمّا أَنا فَأَكَلْتُ التَّمْرَ وَأَلْقَيْتُ النَّوى ، وَأَمّا أَنْتَ ، يا خالِد ، فَأَكَلْتَه بِنَواه .

فَغَضِبَ خالِد ، وَقال :

ـــ أَتُنازِعُني يا حارِث ، وَقَـــدْ قَتَلْتُ أَهْلَكَ ، وَتَرَكْتُكَ يَتيماً في أَحْضانِ النِّساء ؟

فَقَالَ ٱلْحَارِث :

ـــ ذٰلِكَ يَوْمٌ لَم أَشْهَدْهُ وَلَيْسَ لي إلّا هٰذا ٱلْيَوْمُ .

فَقَالَ خالِد :

ـــ أَلَا تَشْكُرُ لي ، إذْ قَتَلْتُ زُهَيْراً ٱلْعَبْسِيَّ ،

وَجعلْتُكَ سَيِّدَ غطَفانَ بَعْدَه؟

قالَ ٱلْحارِث:

ــ بَلى. سَوْفَ أَشْكُرُكَ على ذٰلِك.

الحارِثُ يَنْتَقِم

كانَ مَعَ خالِد ٱبْنُ أَخيهِ، فَقَالَ لِعَمِّهِ خالِد:

ــ كَيْفَ تُنَازِعُ ٱلْحارِثَ، وَقَدْ عَرَفْتَه فتَّاكاً؟

فَقَالَ خالدٌ:

ــ أَبِهِ تُخَوِّفُني؟ فَوَاللهِ، لوْ رَآني نَائِماً ما أَيقَظَني.

ثُمَّ إِنَّ الحارِثَ بْنَ ظالِمٍ ذَهَبَ إلى ٱمْرَأَةٍ عُرِفَتْ بِالْغِناءِ، فَشَرِبَ عِنْدَها، وَهُوَ يَتَصَوَّرُ كَيْفَ يَفْتِكُ بِخَالِد، وَيُجَازِيهِ عَلى مَا جَنَتْ يَداهُ في أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ.

وَفي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ شاهَدَ أَحدُ الرِّجالِ ٱلحارِثَ وَهُوَ يَسْتَعِدُّ لِلْفَتْكِ بِخالِد ، فَأَسْرَعَ ٱلرَّجُلُ إلى خالِد ، وَقالَ لَه :

ــ يا هذا ؟ إنَّ سَيْفَ الحارِث بْن ظالِمٍ يَطْلُبُ الثَّأْرَ ، فَأَخفِ مَكانَكَ عَنْهُ هــذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَإنَّهُ قَدْ غَلَبَهُ الشَّرابُ ، وَإنْ أَبَيْتَ فَٱجْعَلْ رَجُلاً يَحْرُسُك !

فَلَمْ يَقْبَلْ خــالِدٌ أَنْ يُخْفِيَ مَكانَهُ ٱعْتِزازاً بِشَجاعَتِهِ ، ولٰكِنَّهُ نامَ وَجَعَلَ رَجُلاً يَحْرُسُه .

وَلَمَّا أَظلَمَ اللَّيْلُ أَقْبَلَ الحارِثُ ، حَتَّى ٱنْتَهى إلى قُبَّةِ خالِدٍ ، فَكَشَفَ سِتْرَها ، وَمَضى إلى الرَّجُلِ الحارِسِ ، وَقَدْ ظَنَّهُ خالِداً ، فَعَجَنَهُ بِيَدَيْهِ حَتَّى كَسَرَهُ ، وَجَعَلَ يُكَلِّمُهُ فَلا يُجيبُ ، ثُمَّ حَدَّقَ فيهِ ، فَتَرَكَهُ حِينَ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخالِد .

وَمضى إلى خالِدٍ ــ وكانَ يَغُطُّ في نوْمِهِ ــ فَأيْقظَهُ ، فلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ قالَ له :

ــ أَتَعْرِفُني ؟

قَالَ خالِد :

ــ أَنْتَ ٱلحَارِث !

قالَ :

ــ خُذْ جَزاءَ فَضْلكَ عِنْدي !

وَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ ٱلْقُبَّةِ ، وَرَكِبَ نَاقَته ، وَسارَ . وَلَمَّا عَلِمَ النُّعْمانُ بْنُ ٱلْمُنْذِر بِمَقْتَلِ ضَيْفِهِ غَضِبَ ، وَبَثَّ الرِّجالَ في طَلَبِ ٱلحارِثِ ، وَٱلْحَارِثُ كانَ يُسْرِعُ ٱلْخُطى نَحْوَ قَوْمِهِ ، فَأَخْبَرَهُم خَبَرَهُ ، فَخَافُوا غَضَبَ النُّعْمانِ وَأَبَوْا أَنْ يُجِيروهُ ، فَعَلِمَ بِذٰلِكَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ ٱلْعَبْسِيُّ ، وَهُوَ

ٱلَّذي قَتَلَ خَالِدٌ أَباهُ، فَٱشْتَفَى بِما فَعَلَ الحارِثُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَعْرِضُ عَلَيْهِ حِمايَتَهُ وَجِوارَه.

قَيْس بْنُ زُهَيْر يَتَجَهَّز

سَارَ قَيْسُ بنُ زُهَيْرٍ إلى ٱلْمَدِينَةِ، لِيَتَجَهَّزَ لِقتالِ بَني عامِر، وَيَأْخُذَ بِثَأْرِ أَبيه زُهَيْرٍ مِنْهُم. فَأَتى أُحَيْحَةَ ٱبْنَ الجَلَّاح يَشْتَرِي مِنْهُ دِرْعاً مَشْهورَةً، فَقَالَ لَهُ:

— لَوْلا أَن تَذُمَّني بَنو عامِر لوَهَبْتُها لَكَ. وَلٰكِنِ ٱشْتَرِها بِوَلَدِ نَاقَةٍ.

فَفَعَلَ ذٰلِكَ، وَأَخَذَ الدِّرْعَ، وَكَانَتْ تُسَمَّى ذاتَ الحواشي. وَوَهَبَهُ ابْنُ الجَلَّاحِ أَدْراعاً أُخْرى، وَعَادَ قَيْسٌ الى قَوْمِهِ، وَقَدْ فَرَغَ مِنْ جِهازِه.

مَرَّ قيسٌ بالرَّبيع بْنِ زِيادٍ العَبْسيّ، وَدَعَاهُ إلى

مُساعدَتِهِ عَلى ٱلْأَخْذِ بِثَأْرِ أَبيهِ ، فَأَجابَهُ إِلى ذلِكَ ، وَلَمَّا أَرادَ قيسٌ فِراقَهُ ، نَظَرَ ٱلرَّبيعُ إِلى حَقِيبَتِهِ ، وَقالَ لَهُ :

ـــ ماذا في حَقيبَتِكَ ؟

فَقالَ قَيْس :

ـــ مَتاعٌ عَجيبٌ ، لَوْ أَبْصَرْتَهُ لَدُهِشْتَ .

وَأَناخَ ناقَتَهُ، وَأَخرَجَ الدِّرْعَ مِنَ ٱلحَقيبَةِ، فَأَبْصَرَها ٱلرَّبيعُ فَأَعْجَبَتْهُ ، وَلَبِسَها ، فَكانَتْ في طُولِهِ ، فَطَلَبَ الَيْهِ قَيْسٌ أَنْ يَخْلَعَها عَنْ جَسَدِهِ ، فَأَبى ٱلرَّبيعُ، وَلَجَّ قَيْسٌ في طَلَبِها ، وَلَجَّ الرَّبيعُ في مَنْعِها عَنْه .

يَئِسَ قَيْسٌ مِنِ اسْتِرْدادِها، فَسَيَّرَ أَهْلَهُ إِلى مَكَّةَ، وَأَقامَ هُوَ يَنْتَظِرُ غَفْلَةً مِنَ ٱلرَّبيع .

وَجاءَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ... حينَ سَيَّرَ الرَّبيعُ إبلَهُ وأَمْوالَهُ إلى مَرْعى كَثيرِ ٱلعُشْبِ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ فَرَحلوا ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ ، وَسارَ إلى مَنْزِلِه . وَلَمّا بَلَغَ ٱلْخَبَرُ قَيْساً سارَ في أَهْلِهِ وإِخْوَتِهِ ، فَعارَضَ أَهْلَ ٱلرَّبيعَ في ٱلطَّريقِ ، فَوَجَدَ فيهم أُمَّ الرَّبيعِ ، فَٱقْتادَ جَمَلَها ، يُريدُ أَنْ يَرْتَهِنَها بِالدِّرْعِ ، حَتّى تُرَدَّ إِلَيْهِ، فَقالتْ لَهُ أُمُّ الرَّبيع :

— ماذا أَنْتَ صانِعٌ بِنا يا قَيْس ؟

قالَ :

— أَذْهَبُ بِكُنَّ إلى مَكَّةَ، فَأَبيعُكُنَّ بِها بِدِرْعي.

— ما رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ مِثْلَ فِعْلِكَ ... يا قَيْس ! ضَلَّ عَقْلُكَ ! أَتَرجو أَنْ تَصْطَلِحَ أَنْتَ وَبَنو زِياد، وَقَدْ أَخَذتَ أُمَّهُمْ ، فَذَهَبْتَ بِها يَميناً وشِمالاً ، مِنْ أَجْلِ دِرْعِك ...؟ ماذا تَقولُ العَرَبُ عَنْكَ غَداً ؟

فَٱسْتَحْيا قَيْسٌ مِمَّا قالَتْ ، فَخَلَّى سَبيلَها ، وَساقَ الإِبِلَ ، وَسارَ بِها أَلى مَكَّةَ ، فَباعَها وَتَبِعَهُ ٱلرَّبيعُ ، فَلَمْ يَلْحَقْهُ ، وَٱشْتَرى بِها خَيْلاً ، فَكانَ مِمَّا اشْتَرَى مِنَ ٱلْخَيْلِ فَرَسانِ : داحِسٌ وَٱلْغَبْراء .

مَنْ هُوَ قَيْس ؟

ذٰلِكَ هُوَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ سَيِّدُ قَبيلَةِ عَبْسٍ ، وَكانَ قَوْمُهُ يُلَقِّبُونَهُ « بِقَيْسِ الرَّأْيِ » لِجَوْدَةِ رَأْيِهِ ، وَحِدَّةِ ذَكائِهِ .

وَمِنْ أَقْوالِهِ : أَرْبَعَةٌ لا يُطاقُون : عَبْدٌ مَلَكَ ، وَنَذْلٌ شَبِعَ ، وَأَمَةٌ وَرِثَتْ ، وَقَبيحَةٌ تَزَوَّجَتْ .

أَقامَ قَيْسٌ بِمَكَّةَ ، فَكانَ أَهْلُها يُفاخِرونَهُ ، وَكانَ هُوَ أَكْثَرَ تَفاخُراً مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَقالَ لَهُم :

ـ نَحُّوا كَعْبَتَكُمْ عَنَّا، وَبَيْتَكُمُ ٱلْمُحَرَّمَ، وَهاتُوا مـــا شِئْتُم .

فَقالَ لَهُ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَدْعانَ ـ وَهُوَ أَحَـــدُ كُرَماءِ ٱلْعَرَبِ في ٱلْجاهِلِيَّةِ :

ـ إِذا لَمْ نُفاخِرْكَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ، وَٱلْحَرَمِ ٱلْآمِنِ، فَبِماذا نُفاخِرُكَ؟

وَمَلَّ قَيْسٌ مُفاخَرَتَهُم، وَٱلْمُقامَ فِيهِمْ، وَعَزَمَ عَلى ٱلِٱرْتِحالِ عَنْهُمْ، فَسَرَّ ذٰلِكَ قُرَيْشاً، لِأَنَّهُمْ قَدْ كانوا كَرِهُوا أَيْضاً مُفاخَرَتَه .

فَقالَ قَيْسٌ لِإِخْوَتِه :

ـ إِرْحَلوا بِنا مِنْ عِنْدِهِمْ أَوَّلاً قَبلَ أَنْ يَشْتَعِلَ الشَّرُّ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ، وَٱلْحَقوا بِبَني بَدْرِ بْنِ فِزارَةَ، فَإِنَّهُمْ أَكْفـــاؤُنا في الحَسَبِ، وَبَنو عَمِّنا في ٱلنَّسَبِ،

وَأشرافُ قَوْمِنا في الكَرَمِ ، لا يَسْتَطيعُ الرَّبيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنا ، وَنَحْنُ في بُيوتِهم .

فَاسْتَصْوَبوا رَأيَهُ، وَارْتَحَلوا . لَحِقَ هُوَ بِبني بَدْرٍ، وَأَجارَهُ رَئيسُها حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ، فَأَقامَ فِيهِمْ آمِناً ، مُطْمَئِناً .

وَكانَ مَعَهُ أَفْراسٌ لَهُ وَلِإِخوَتِه لَمْ يَكُنْ في ٱلْعَرَبِ مِثْلُها ، وَكان حُذَيْفَةُ يَمُرُّ بِهِ ، وَيَنْظُرُ إلى خَيْلِهِ ، فَيَحْسُدُهُ عَلَيْها ، وَيُخْفي ذٰلِكَ في نَفْسِه .

أَقامَ قَيْسٌ فيهِمْ زَماناً ، وَهُمْ يُكْرِمونَهُ وإِخْوَتَهُ ، وَلَمّا عَلِمَ بِذٰلِكَ الرَّبيعُ بْنُ زيادٍ غَضِبَ، وَنَقَمَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْذَرَهُمْ بِقَطْعِ الصَّداقَةِ بَيْنَهُمْ، وَلٰكِنَّ بَني بَدْرٍ لَمْ يَتَغَيَّروا عَنْ جِوارِ قَيْسٍ وحِمايَتِه ، فَازْدادَ الرَّبيعُ غَيْظاً ، وَغَضِبَتْ بنو زِيادٍ لِغَضَبِه .

الرِّهانُ بِدايَةُ الشَّرِّ

عَلى أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ بَدْرٍ بَدَأَ يَكْرَهُ قَيْساً، لِكَثْرَةِ ٱلْمَتاعِبِ ٱلّتي أَوْقَعَها فيهِمْ نُزولُهُ عِنْدَهُم. وَأَرادَ إِخْراجَهُ عَنْهُمْ، وَلٰكِنَّهُ لا يَجِدُ السَّبَبَ الَّذي يُعينُهُ عَلى ذٰلِكَ.

وَذاتَ يَوْمٍ، عَزَمَ قَيْسٌ عَلى الْحَجِّ، فَقالَ لِأَصْحابِهِ:

— إِنِّي عَزَمْتُ عَلى الحَجِّ فَإِيّاكُمْ أَن تَمَسُّوا حُذَيْفَةَ بِشَيْءٍ. وَٱحْتَمِلوا كُلَّ ما يَكونُ مِنْهُ حَتّى أَرْجِعَ، فَإِنّي قَدْ لَمَحْتُ الشَّرَّ في وَجْهِهِ، وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلى قَضاءِ حاجَتِهِ مِنكُمْ إِلّا أَنْ تُراهِنوهُ على الخَيلِ، لأَنَّ نَفْسَهُ حاقِدَةٌ عَلى خَيْلي.

ثُمَّ سارَ يُريدُ مَكَّةَ... وَأَثْناءَ غَيْبَتِهِ، زارَ الوَرْدُ

العَبْسِيُّ حُذَيْفَةَ بْنَ بَدْرٍ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ حُذَيْفةُ خَيْلَهُ ، فقال الوَرْدُ :

ـــ ما أرى في هٰذِهِ الخَيْلِ جَواداً كَريماً .

فَقالَ لَهُ حُذَيْفَةُ :

ـــ إذا لَمْ يَكُنْ عِنْدي ٱلجَوادُ ٱلكَريمُ ، فعِنْدَ مَنْ يَكونُ ؟

فَقالَ :

ـــ عِنْدَ قَيْسِ بْنِ زُهَيْر .

فَقالَ حُذَيْفَةُ :

ـــ هَلْ لَكَ أَنْ تُراهِنَني عَلَيْه ؟

قالَ ٱلوَرْدُ :

ـــ نَعَمْ قَدْ رَضيتُ .

وَراهَنَهُ على فَرَسَيْنِ لِقَيْسٍ هُما : داحِسٌ وَالغَبْراءُ .

اتّفاقٌ على الانْطِلاق

ثُمَّ إنَّ وَرْداً العَبْسِيَّ أَتى قيسَ بْنَ زُهَيْرٍ ، وَقال:

ــ إنِّي قَــــدْ راهَنْتُ عَلى فَرَسَيْنِ من خَيْلِكَ ، وَأَوْجَبْتُ الرِّهانَ .

فَقالَ قَيْسٌ :

ــ كُلُّ رِهانٍ مَقبولٌ عِنْدي إلّا رِهانُ حُذَيْفَة .

فَقالَ الوَرْدُ :

ــ ما رَاهَنْتُ غَيْرَ حُذَيْفَة .

فَقَالَ قَيْسٌ :

ــ لَنْ يُعْطِيَ هٰذا الرِّهانُ إلَّا الشَّرَّ وَالنَّكَد .

ثُمَّ رَكِبَ قَيْسٌ، حَتَّى أَتى حُـــذَيْفَةَ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ حُذَيْفَة :

ـــ ماذا أَتى بِكَ ؟

فَقالَ قَيْسٌ :

ـــ أَتَيْتُ لِنَتَبادَلَ الرَّأْيَ فِيما كانَ .

فَقَالَ حُذَيْفَةُ :

ـــ بَلْ أَتَيْتَ لِتُوجِبَ الرِّهانَ بَيْنَنا .

فَقَالَ قَيْسٌ :

ـــ ما أَردْتُ ذٰلِكَ ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِأُبْطِلَهُ .

فَأَبى حُذَيْفةُ إِلّا تَمسُّكاً بِالرِّهانِ ، فَقَالَ قَيْسٌ:

ـــ مَسافَةُ السِّباقِ رَمْيَةُ سَهْمٍ .

فَقال حُذَيْفَةُ :

ـــ وَالمُهْلَةُ بَيْنَنا أَرْبعونَ لَيْلَةً لتَضْميرِ الخَيْلِ .

فَرَضِيَ الاْثنـانِ ، وَوَضَعا قِيمَـةَ السَّبْقِ عَلى يَدَيْ

حَكَمٍ غريبٍ عَنْهُما، ثُمَّ ضَمَّروا الخَيْلَ، فَلَمّا فَرَغوا مِنْ وَقْتِ تَضْميرِها قادوها الى مَيْدانِ السِّباقِ، وجَعَلوا السابِقَ مِنْها الفَرَسَ الذي يَرِدُ عَيْنَ ذاتِ الإِصادِ، قبْلَ غَيْرِهِ مِنَ الخَيْلِ، وَيشْرَبُ مِنْها.

وَأَجْرى قَيْسٌ مِنْ خَيْلِهِ داحِساً والغَبْراءَ، وَأَجْرى حُذَيْفَةُ مِنْ خَيْلِهِ الخَطّارَ والحَنْفاءَ.

سِباق ينْتهي الى شِقاق

لَمْ يَكُنْ حُذَيْفَةُ مُخْلِصاً في نِيَّتِه، وَهُوَ يَعْرِفُ في نَفْسِهِ أَنَّه سَيَخْسَرُ السِّباقَ، لِأَنَّ خَيْلَ قَيسٍ أجرى مِنْ خَيْلِهِ، وَصبْرَها عَلى الجَرْيِ أَشَدُّ، لِذٰلِكَ، كانَ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحْتالَ حِيلَةً تَضْمَنُ لَهُ الظَّفَرَ بالرِّهانِ.

نادى حُذَيْفَةُ رَجُلاً، وَأَمَرَهُ أَن يَكْمُنَ في الطَّريقِ،

فإنْ جاءَ داحِسٌ سابِقاً أَجفَلهُ وَردَّهُ عَنْ غايَتِه.

وَلَمَّا أُرسِلَتِ ٱلخَيْلُ، سَبقَها داحِسٌ سَبْقاً واسِعاً، وَالنَّاسُ يَنْظُرونَ، حَتَّى إذا هَبَطَ داحِسٌ في الوادي، وَرَآهُ الرَّجلُ مُتَقَدِّماً عَلى ٱلخَيْـــلِ، عارَضَه فَأَجفَلَهُ، وَلَطَمَ وَجْهَـــهُ، فَأَلْقاهُ في ٱلْماءِ، فَكادَ يَغْرَقُ هُوَ وَراكِبُهُ، وَلَمْ يَخْرُجْ إلَّا وَقَـد فَاتَتْهُ الخَيْـلُ. وَأَمَّا راكِبُ ٱلغَبْراءِ، فَإِنَّهُ خالَفَ طَرِيقَ داحِسٍ، بَعْدَ أَنْ رَأَى ما أَصابَهُ، ثُمَّ عادَ بِهِ إلى الطَّريقِ، وَٱجْتَمَعَ مَعَ فَرَسَيْ حُذَيْفَةَ... ثُمَّ سَقَطَتِ ٱلحَنْفَاءُ، وَبَقِيَ الخَطَّارُ مِنْ أَفْراسِ حُذَيْفَةَ وَالغَـــبْراءُ من أَفْراسِ قَيْسٍ، يُكْمِلانِ السِّباقَ.

ثُمَّ إِنَّ الغَبْراءَ جاءَتْ سَابِقَةً، وَتَبِعَها الخَطَّارُ، ثُمَّ الحَنْفاءُ، ثُمَّ جاءَ داحِسٌ بَعْدَ ذٰلِكَ، وَٱلغُلامُ يَسِيرُ

بِهِ عَلى مَهْلِهِ ، وَأَخْبَرَ قَيْساً بِمَا كانَ .

فَأَنكَرَ حُذَيْفَةُ ذٰلِكَ ، وَٱدَّعى السَّبْقَ لَهُ ظُلْماً ، وَقالَ :

ــ لَقَدْ جاءَ فَرَسَايَ مُتَتَابِعَيْنِ ، وَالسَّبْقُ لي !

وَمَضى قَيْسٌ وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى نَظَروا إِلى الرَّجُلِ ٱلَّذي ضَرَبَ دَاحِساً ، فَٱعْتَرَفَ لِقَيْسٍ بِمَا صَنَعَ ، وَأَظْهَرَ نَدَمَهُ عَلى ما فَعَلَ .

عَادَ قَيْسٌ وَأَصْحابُهُ إِلى حُذَيْفَةَ وَأَصْحابِهِ ، وَقالَ :

ــ يا قَوْمُ ! إِنَّهُ لَا يَأْتِي قَوْمٌ إِلى قَوْمِهِمْ شَرًّا مِنَ الظُّلْمِ ، فَأَعْطُونا حَقَّنا !

فَأَبَتْ بَنو فِزارَةَ أَنْ يُعْطُوهُمْ شَيْئاً . وَكانَ مِقْدَارُ الرَّهْنِ عِشْرِينَ مِنَ ٱلْإِبِلِ . فَقَالَتْ بَنُو عَبْسٍ :

ـ أعطُونَا شَيْئاً مِنْ حقِّنا في السَّبْقِ !

فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُمْ شَيْئاً . فقالُوا :

ـ أعطُونا جَزُوراً نَنْحَرُها ونُطْعِمُها أَهْلَ ٱلماءِ .

فإنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَكُونَ بُخَلاءَ .

فَقالَ رَجُلٌ مِنْ بَني فِزارَةَ :

ـ مائةُ جَزُورٍ ، وَجَزُورٌ وَاحِدَةٌ سَوَاءٌ . وَٱللهِ ، ما كُنَّا لِنُقِرَّ لكُمْ بِالسَّبْقِ عَلَيْنا ، وَلَمْ تَسْبقونا .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَني فِزَارَةَ يَقُولُ بالعَدْلِ :

ـ يا قَوْم ! إنَّ قَيْساً كانَ كارِهاً لِأَوَّلِ هٰـــذا الرِّهانِ ، وَقَدْ أَحسَنَ في آخِرِهِ ، وَإِنَّ الظُّلْمَ لا يَنْتَهي إِلَّا إِلى شَرٍّ . فَأَعْطُوه جَزُوراً مِن إِبِلِكُم .

فَأَبَوْا ، فَقَامَ الرَّجُلُ إلى جَزُورٍ مِن إِبِلِهِ ، فَرَبَطَها

لِيُعْطِيَها قَيْساً وَيُرْضِيَهُ، وَيَحْسِمَ ٱلنِّزاعَ بَيْنَ القَوْمَيْنِ. فَقَامَ ٱبْنُهُ إِلَيْهِ وَقَالَ:

ــ ماذا تَصْنَعُ يا أَبي؟ إِنَّكَ لَكَثيرُ الخَطَإِ. أَتُرِيدُ أَنْ تُخالِفَ قَوْمَكَ، وَتُلْحِقَ بِهِمْ عاراً لا يُمْحَى؟

وَأَطْلَقَ النَّاقَةَ مِنْ حِبالِها، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَبُوهُ أَنْ يَصْنَع شَيْئاً.

فَلَمَّا رَأَى ذٰلِكَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ ٱرْتَحَلَ عَنْهُمْ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ عَشيرَتِه.

النَّار مِنْ صَغيرِ الشَّرار

لٰكِنَّ حُذَيْفَةَ لَمْ يَكُفَّ عَنْ طَلَبِ رِهَانِ السِّباقِ، فَأَرْسَلَ إِلى قَيْسٍ ابْنَهُ يُطَالِبُه بِالسَّبْقِ، فَلَم يُصادِفْ قَيْساً. فَقالَتْ لَهُ ٱمْرَأَةُ قَيْس:

ـــ إنَّ مِنْ حَظِّكَ لم تُصَادِفْ قَيْساً ، ولَوْ وَجَدْتَه لأَرْداكَ قَتِيلاً .

فَرَجعَ إلى أَبيهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ زَوْجَةُ قَيْسٍ ، فَغَضِبَ وصَرَّ على أَسْنانِهِ ، وقَالَ :

ـــ وَٱللهِ ، لَتَعودَنَّ إِلَيْهِ ، إِنَّهُ أَجْبَنُ مِنْ أَن يَقْتُلَ .

وَلَمَّا رَجعَ قَيْسٌ إلى بَيْتِهِ أَخْبَرَتْهُ ٱمْرَأَتُهُ ٱلْخَبَرَ ، فَٱشْتَعَلَ غَيْظاً وَأَدْرَكَ أَنَّ هٰذا الشَّرارَ سَيُوَلِّدَ النَّارَ .

وَما هِيَ إِلَّا ساعَةٌ حَتَّى رَجعَ ٱبْنُ حُذَيْفَةَ إلى قَيْسٍ ، فقالَ لَهُ :

ـــ يَقُولُ أَبي : أَعْطِني سَبْقَنا !

فَتَناوَلَ قَيْسٌ الرُّمحَ فطَعَنَهُ ، فَدَقَّ ظَهْرَهُ ، وَعادَتْ فَرَسُهُ إلى أَبيهِ تارِكَةً صاحِبَها قَتِيلاً .

وَنادى قَيْس :

ــ يا بَني عَبْس ! الرَّحِيلَ ، الرَّحِيلَ ! إِنَّها ٱلْحَرْبُ .

فَرَحَلُوا كُلُّهُمْ عَنْ مَوَاطِنِهِم .

وَلَمَّا أَتَتْ ٱلْفَرَسُ حُذَيْفَةَ وَحْدَهَا عَلِمَ أَنَّ وَلَدَهُ قَدْ قُتِلَ ، فَصاحَ في النَّاسِ :

ــ إلى مَنَازِلِ بَني عَبْسٍ !

وَرَكِبَ حُذَيْفَةُ فِيمَنْ مَعَهُ ، وَأَتى مَنازِلَ بَني عَبْسٍ ، فَرَآها خالِيَةً ، وَوَجَدَ ٱبْنَهُ قَتِيلاً ، لَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، فَنَزَلَ إِلَيْهِ ، وَحَضَنَهُ ، وَقَبَّلَه بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَمرَ بِدَفْنِهِ .

وَٱجْتَمَعَ النَّاسُ مِنْ كِلا ٱلْقَبِيلَتَيْنِ ، وَتَفاوَضُوا في أَمْرِ الصُّلْحِ ، عَلى أَنْ يُقَدِّمَ بَنُو عَبْسٍ دِيَةَ ٱلْقَتِيلِ لِأَبِيهِ

حُذَيْفَة ، فَرَضِيَ حُذَيْفَةُ ، وَأَخَذَ دِيَةَ وَلَدِهِ ، وَسَكَنَ النَّاسُ .

قَتِيلٌ بَعْدَ قَتِيل

كانَ مالِكُ بْنُ زُهَيْرٍ ـ أخو قَيْسٍ ـ مُتَزَوِّجاً في قَبِيلَةِ فِزارَةَ ، وَهُوَ نازِلٌ فِيهِم . فَلَمَّا كانَ ما كانَ مِنْ أَمْرِ قَيْسٍ ، أَرْسَلَ إلى أَخِيهِ مالِك :

ـ إنّي قَدْ قَتَلْتُ ابْنَ حُذَيْفَةَ ، وَرَحَلْتُ . فَالْحَقْ بِنا عَلى عَجَلٍ ، وإلَّا قُتِلْتَ .

فَلَمْ يُجِبْهُ مالِكٌ ، وَلا اهْتَمَّ بِتَحْذِيرِ أخيه ، وَإنَّما قَالَ :

ـ وَما ذَنْبي أنا ؟ إنَّما ذَنْبُ أَخي قَيْسٍ عَلَيْهِ .

وَفي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، أَرْسَلَ قَيْسٌ إلى الرَّبيع بْنِ زِيادٍ

ٱلَّذي كانَ بَيْنَهُما خُصومَةٌ ، يَطْلُبُ مِنْهُ ٱلْعَفْوَ عَمَّا كانَ مِنْهُ ، وَيَدْعُوهُ إلى ٱلرُّجوعِ إِلَيْهِ ، وَٱلْمُقامَ مَعَهُ إِذْ هُمْ عَشيرَةٌ واحِدَةٌ ، وَأَهْلٌ واحِدٌ ، وَٱلْمَصائِبُ تُوَحِّدُ أَهْلَها . فَلَمْ يُجِبْهُ ٱلرَّبيعُ بِشَيْءٍ ، وَظَلَّ مُفَكِّراً في ذٰلِكَ .

وَلَمّا عادَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ إلى قَبيلَتِهِ ، فَكَّرَ في ٱلْاَنْتِقامِ لِوَلَدِهِ بِالْقَضاءِ عَلى مالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ ، وَإِنَّما مالِكٌ وَقَيْسٌ أَخَوانِ ـ فَدَسَّ حُذَيْفَةُ لِمالِكٍ فُرْساناً عَلى أَفْراسٍ مِنْ أَجْوَدِ خَيْلِهِ وَقالَ لَهُمْ :

ـ إذا وَجَدْتُمْ مالِكاً فَٱقْتُلوه !

فَٱنْطَلَقَ ٱلْفُرْسانُ يَبْحَثونَ عَنْ مالِكٍ ، حَتّى وَجَدوهُ ، فَقَتَلوهُ ، ثُمَّ انْصَرَفوا عَنْهُ ، وَعادوا في في المَساءِ ، وَقَدْ أَجْهَدوا أَفراسَهُمْ في الرَّكْضِ ، فوَقَفوا

عَلى حُذَيْفَةَ ، وَمَعَهُ الرَّبيعُ بنُ زِياد ، فَقالَ حُذَيْفَةُ :

ـــ هَلْ قَدِرْتُمْ عَلى حِمارِكم ؟

فَقالوا :

ـــ نَعَم ، وَقَتَلْناه .

فَقالَ ٱلرَّبيعُ ، وَهُوَ لا يُدْرِكُ مَغْزى هٰذا ٱلْكَلام:

ـــ ما رأَيْتُ كَالْيَوْم قَطُّ ! أَهْلَكْتَ أفراسَكَ مِنْ أَجْلِ حِمار ؟

فَقالَ حُذَيْفَةُ ، بَعْدَ أَن أَكْثَروا عَلَيْهِ من اللَّوْمِ :

ـــ إنَّا لَمْ نَقْتُلْ حِماراً ، ولٰكِنَّا قَتَلْنا مالِكَ ٱبْنَ زُهَيْر .

فَقالَ ٱلرَّبيعُ ، وَقَدْ تَنَهَّدَ مِنَ الْأَلَمِ عَلى حُذَيْفَةَ وٱبْنِ عَشيرَتهِ مالِك :

ــ بئسَ ما فَعَلْتَ ! أَمَا واللهِ ، إنَّ الأُمورَ تعقَّدَتْ ، وَسَينالُنا ما نكْرَهُ .

ثُمَّ تَراجَعا شَيْئاً مِنْ كَلامٍ ومَلامٍ ، ثُمَّ تفرّقا .

الدَّمُ يُنادي الدَّم

أَدْرَكَ حُذَيْفَةُ أَنَّ الرَّبيعَ بْنَ زِيادٍ لا بُدَّ أَنْ تأْخُذَهُ العَصَبيَّةُ والحَمِيَّةُ عَلى قَوْمِهِ وعَشيرَتِهِ ، ولٰكِنَّهُ أَحبَّ أَنْ يَعْرِفَ ماذا يَصنَعُ الرَّبيع ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِجارِيَةٍ ، وَقالَ لَها :

ــ إذْهبي إلى خِيامِ الرَّبيعِ ، وَانْظُري ما يَصْنَع!

إنْطَلَقَتِ الجارِيَةُ حتّى دَخَلَتِ البَيْتَ ، وَانْدَسَّتْ وَراءَ سِتارَةٍ ، فَجاءَ الرَّبيعُ ، فَدَخَلَ البيْتَ ، حَتّى أَتى فَرَسَهُ ، فَأَمْسَكَ بِناصِيَـــةِ الفَرَسِ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ ،

وَٱنْتَهى إلى ذَنبِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إلى ساحَةِ ٱلْبَيْتِ ، وَرُمْحُه مَرْكوزٌ بِها ، فَهَزَّهُ هَزّاً شَديداً ، ثُمَّ رَكَزَهُ كَما كانَ. وَقالَ لِٱمْرأَتِه :

ـــ إِطْرَحي لي شَيْئاً أَضْطَجِعُ عَلَيْهِ .

فَطَرَحَتْ لَهُ رِداءً فَٱضْطَجَعَ عَلَيْهِ ، وَقالَ لَها :

ـــ إِلَيْكِ عَنّي! فَقَدْ حَدَثَ أَمْرٌ لا نَدْري عاقِبَته..

سَمِعَتِ ٱلْجارِيَةُ ذٰلِكَ ، وَرَأَتْ بِعَيْنِها مـــا فَعَلَ ٱلرَّبيعُ ، وَعادَتْ إلى حُذَيْفَة ، فَأَخْبَرَتْهُ ٱلْخَبَرَ فَقالَ :

ـــ لا بُدَّ أَنَّ ٱلرَّبيعَ سَيَعودُ إلى أَهْلِهِ .

العَصَبِيَّةُ تُثيرُ ٱلْحَمِيَّة

لَقَدْ كانَ جَزَعُ ٱلرَّبيعِ بْنِ زِيادٍ عَلى مَقْتَلِ مالِكٍ شَديداً ، لِأَنَّهُ فَقَـــدَ صاحِباً قَريباً وَأَخاً عَزيزاً .

وَراجَعَ نَفْسَهُ في أَمْرِ ٱلْبَقَاءِ عِنْدَ حُذَيْفَةَ ، أَوِ ٱلرَّحِيلِ إِلى قَوْمِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ بُــدًّا مِنَ ٱلرَّحِيلِ ، لِيَقِفَ وَيَتَحَمَّلَ مَعَهُمْ ما يَتَحَمَّلُونَ في هٰذِهِ النَّكْبَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلى قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ رَسُولاً يَرَى ما عِنْدَ قَيْسٍ ، وَيَطَّلِعُ عَلى مــا يَنْوِي أَنْ يَفْعَلَهُ . فَجاءَ ٱلرَّسُولُ ، فَسَمِعَ قَيْساً يُنْشِدُ :

أَيَنْجُو بَنو بَــدْرٍ بِمَقْتَلِ مالِكٍ
وَيَخْذُلُنـــا في النَّائِباتِ رَبِيعُ ؟
فَقُلْ لِرَبِيعٍ يَحْتَذِي فِعْـــلَ شَيْخِهِ
وما النَّاسُ إِلَّا حافِظٌ وَمُضِيعُ

فَعادَ ٱلرَّسُولُ إِلى ٱلرَّبِيعِ فَأَخْبَرَهُ بِما سَمِعَ مِنْ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ ، فَبَكَى ٱلرَّبِيعُ عَلى مالِكٍ وقالَ :

— وَاللهِ ، لَنْ أَخْذُلَ قَوْمِي أَبداً . وَغَداً تَمْشي

الفُرْسَانُ تَحْتَ ٱلرَّايات . كَيْفَ أَنْسَى مالِكاً ؟ لَيْسَ ، وَاللهِ ، وَرَاءَه إِلَّا سُيُوفٌ مَسْلُولَةٌ ، وَسَواعِدُ مَفْتُولَةٌ ، حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَنا أَمْراً كانَ مَفْعُولاً .

ظالِمٌ ومَظْلوم

لَمَّا عَلِمَ قَيْسٌ بِقَوْلِ ٱلرَّبيعِ رَكِبَ هُوَ وَأَهْلُهُ ، وَقَصَدوا مَضارِبَ ٱلرَّبيعِ بْنِ زِيادٍ ، فَوَجَدوهُ يُصْلِحُ سِلاحَهُ ، ويُهَيِّئُ أَفْراسَهُ ، فَتَرَجَّلَ قَيْسٌ عَنْ جَوادِهِ ، وقَامَ ٱلرَّبيعُ فَاعْتَنَقَا ، وبَكَيا ، وَأَظْهَرا ٱلْحُزْنَ وَٱلْجَزَعَ لِمُصابِ مالِكٍ ، وَلَقِيَ ٱلْقَوْمُ بَعْضُهم بَعْضاً ، وَنَفَضوا كُلَّ حِقْدٍ وَعَداوَةٍ مِنْ صُدورِهِم .

قالَ قَيْسٌ لِلرَّبيع :

ــ إِنَّهُ لَمْ يَهْرُبْ مِنْكَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْكَ ، وَلَمْ يَستَغْنِ عَنْكَ مَنِ اسْتعانَ بِكَ وَقَدْ كُنْتُ لَكَ شَرّاً ، فَكُنْ لِيَ ٱليومَ خَيْراً . وَإِنّما أَنا بِقَوْمي ، وَقَوْمي بي. وَقَدْ أَصابَ ٱلقَوْمُ مالِكاً ، وَمَعَ ذٰلِكَ ، لَا أُضْمِرُ ٱلسُّوءَ ، لِأَنّي إِنْ حارَبْتُ بَني حُذَيْفَةَ نصَرَتْهُم بَنو ذُبيانَ، وإِنْ حارَبْتَني أَنتَ خذَلَتْني بَنو عَبْسٍ ، إِلَّا أن تَجْمعَهُم عَليَّ . وَأَنا وَٱلْقَوْمُ في الدِّماءِ سَواءٌ . قَتَلْتُ ابْنَ حُذَيْفَةَ ، وَقَتلوا أخي. فإنْ نصَرْتَني طَمِعْتُ فيهِم ، وإِنْ خذَلْتَني طمِعُوا فِيَّ .

فَقالَ الرَّبيع :

ــ يا قَيْسُ ! إِنَّهُ لا يَنْفعُني أَنْ أَرى لَكَ مِنَ الفَضْلِ ما لا أَراهُ لي . وَلا يَنْفَعُكَ أَنْ تَرى لي ما أَراهُ لَكَ . وَأَنْتَ ظالِمٌ وَمَظْلومٌ . ظَلَموكَ في جَوادِكَ ، وَظَلَمْتَهُمْ

في دِمائِهم . وقَتلوا أَخاكَ بِٱبْنِهم . فإنْ يَجُرَّ الدَّمُ إلى دَمٍ ، فإنّها الحَرْبُ .

وَبلغَ حُذَيْفةَ أنَّ ٱلرَّبيعَ وَقَيْساً قَدْ ٱتَّفَقا ، وَجَمَعَتْهما قَرابَةُ الدَّمِ ، وطَلَبُ الثَّأْرِ . فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيْه .

وَلَمَّا عَلِمَ حَمَلُ بْنُ بَدْرٍ – أخو حُذَيْفةَ – بِما كانَ ، حرّضَ أَخاهُ حُذَيْفَةَ عَلى ٱلرَّبيعِ ، وَٱلْإمْساكِ بِهِ رَهِينَةً ، قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَ دِيارَهُ ، وَقالَ لَهُ :

– عَلَيْكَ بِالرَّبيع ! لَقَدْ قَتَلْتَ مالِكاً ، وتُخَلِّي الرَّبيعَ ؟ وَاللهِ ، إنْ رَحَلَ لَيَهِيجَنَّ عَلَيْكَ الحَرْبَ .

فَرَكِبَ الاثْنانِ في طَلَبِ ٱلرَّبيعِ ، فَوَجَدا مَنازِلَهُ خالِيَةً ، وَعَلِما أَنَّهُ لَمْ يُخَلِّ دِيارَهُ إلّا لِشَرٍّ .

يَوْمُ المُرَيْقِبِ

وَهٰكَذا تَوَلَّدَتِ الثَّارُ مِنْ ذٰلِكَ الشَّرار !

تَلاقَتْ جُموعُ بَني ذُبْيانَ وَعَبْسٍ ، في المُرَيْقِبِ ، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَديداً ، وَمالَتْ كِفَّةُ النَّصْرِ إلى بَني عَبْسٍ ، وَكانَ لِلْبَطَلِ عَنْتَرَةَ الْعَبْسِيِّ جَوْلَاتٌ سَاعَدَتْ عَلى إِحْرازِ النَّصْرِ .

وَفي الْمَساءِ ، كانَ الرَّبيعُ بْنُ زِيادٍ يَقُودُ حُذَيْفَةَ ابْنَ بَدْرٍ أَسيراً إلى رُبُوعِ قَوْمِه ...

وَإِنَّهُ في قُيودِهِ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ حُرُّ بْنُ الحارِثِ العَبْسِيّ حامِلاً سَيْفَهُ الْقَاطِعَ ، يُريدُ أَنْ يَقْطَعَ عُنُقَهُ ، وَفاءً لِنَذْرٍ نَذَرَهُ بِأَنَّهُ إذا تَمَكَّنَ مِنْ حُذَيْفَةَ لا بُدَّ أَنْ يَقْتُلَه ، لٰكِنَّ النَّاسَ نَهَوْهُ عَنْ قَتْلِهِ ، وَحَذَّرُوهُ

عاقِبَـةَ ذٰلِكَ . فَأَبى إِلَّا ضَرْبَهُ فوَضَعُوا عَلى حُذَيْفَة الرِّحالَ ، وَهوَ يَهِيجُ كالثَّوْرِ حَوْلَهُ . فَلَمَّا تَمكَّنَ مِنْهُ ضَرَبَهُ ، وَلٰكِنَّ سَيْفَهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً ، وَبَقِيَ حُذَيْفَةُ أَسِـــيراً .

إِجْتَمَعَتْ بَنو غَطَفَانَ ، وَسَعَوْا في الصُّلْحِ عَلى أَنْ يَتَحَمَّـلَ كُلُّ طَرَفٍ مُصَابَـهُ ، فَقَتِيلٌ بِقَتِيلٍ ، وَجَرِيحٌ بِجَرِيحٍ ، وَما زادَ عَلى ذٰلِكَ تَحَمَّلوا فِيهِ الدِّيَةَ .

وَكانَ مِنْ هٰـــذا ٱلِاتِّفاقِ عَلى الصُّلْحِ أَنْ يُعْطوا حُذَيْفَةَ عَنْ ضَرْبَتِهِ مائَتَيْنِ مِنَ الإِبِلِ ، وَطَلَبُوا إِلى حُذَيْفَة أَنْ يَعْفُوَ عَن دِماءِ مَنْ قُتِلَ مِنْ قَوْمِهِ الذُّبْيانِيِّينَ في الوَقْعَةِ ، فَرَضِيَ بِذٰلِكَ ، وَأُطْلِقَ مِنَ الأَسْرِ .

وَلَمَّا رَجَعَ حُذَيْفَةُ إِلى قَوْمِهِ نَـــدِمَ عَلى ذٰلِكَ ،

وراحَ يُسِيءُ إلى بَني عَبْسٍ بِأَقْوالٍ فِيها حِقْدٌ وَعَداوَةٌ . فَرَكِبَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ وعُمارَةُ بْنُ زِيادٍ وَمَضَيا إِلى حُذَيْفَةَ ، وَتَحَدَّثا مَعَهُ وَطَلَبَا إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِما الإِبلَ ٱلتي أَخَذَها مِنْهُما ، وكانَتْ تَوالَدَتْ عِنْدَهُ ، فَمالَ إلى تَحْقِيقِ ٱلِاتِّفاقِ ، وَكادَ يَقِفُ الأَمْرُ عِنْدَ هٰذا ٱلحَدّ .

وَبَيْنَما هُمْ في ذٰلِكَ ، إِذْ جاءَهُمْ سِنانُ المُرِّيُّ ، فَقَبَّحَ رَأْيَ حُذَيْفَةَ في الصُّلْحِ وَقال :

ــ إنْ كُنْتَ ، لا بُدَّ ، فاعِلاً فَأَعْطِهِمْ إِبلاً هَزِيلَةً مَكانَ إِبلِهِمْ ، واحْبِسْ أَوْلادَها عِنْدَكَ .

فَمالَ حُذَيْفَةُ إلى رَأْيِ سِنَان ، وَأَبى قَيْسٌ وَعُمارَةُ ذٰلِكَ ، وَتَفَرَّقُوا على عَدَمِ الاتِّفاق .

يَوْمُ وادي ٱلْهَبَاءَة

خَرَجَ مالِكُ بْنُ بَدْرٍ ــ أَخو حُذَيْفَةَ ــ ذاتَ يَوْمٍ ، يَطْلُبُ إِبِلاً لَهُ ٱنْتَشَرتْ في ٱلْمَراعي ، فَلَقِيَهُ جُنْدُبُ العَبسيُّ ، فَكَمَنَ لَهُ في ٱلطَّريقِ ، حَتّى إِذا تَجاوَزَهُ رَماهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَه .

وَجاءَتِ ٱلْأَنباءُ بَني ذُبْيانَ ، فَٱسْتَعَدُّوا لِلْقِتالِ ، يَرْأَسُهُمْ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْر . وَٱسْتَعَدَّتْ بَنو عَبْسٍ لِلِّقاءِ ، يَرْأَسُهُمْ ٱلرَّبيعُ بْنُ زِياد ، وَتَحَرَّكَتْ جُموعُ ٱلْقَبيلَتَيْنِ نَحْوَ وادي الْهَباءَة .

انْهَزَمَتْ بَنو عَبسٍ في بَدْءِ ٱلْمَعْرَكَةِ ، وَأَتَتْهُمْ بَنو ذُبْيانَ ، فَلَمَّا خافَ بَنو عَبْس عاقِبَةَ ٱلْمَعْرَكَةِ ، ٱلْتَفَتَ ٱلرَّبيعُ بْنُ زِيادٍ إِلى قَيْس ، وَسَأَله :

ـ يا قيْسُ ما ٱلرَّأْيُ ! اليوْمُ يَوْمُكَ ... ؟

فَأَجابَ قَيْس :

ـ لَيْسَ لَنا إِلّا أَنْ نَمْكُرَ بِهِم !

قالَ ٱلرَّبيع :

ـ بِئْسَ المَكْرُ سِلاحاً يا قَيْسُ !

فَقالَ قَيْس :

ـ وَلٰكِنَّا ، نَخافُ ، إِنْ قاتَلْناهُمْ على كَثْرَتِهِم وَقِلَّتِنَا أَلَّا نَقْدِرَ عَلَيْهِم .

فَقالَ ٱلرَّبيع :

ـ وَما عَسى يَنْفَعُنا المَكْرُ بِهِم ؟

فَقالَ قَيْس :

ـ إِنَّهُمْ لَيْسُوا في كُلِّ حينٍ يَجْتَمِعونَ ، كَما تَجَمَّعوا

هٰـذا اليَوْمَ ، وحُذَيْفَةُ رَجُلٌ يَعْتَزُّ بنَفْسِه ، لا يَسْتَنْفِرُ أَحدَاً ، وَلا يَسْتعينُ بأَحدٍ ، ٱغْتراراً بِقُدْرَتِهِ وعُلُوِّهِ... فَنَدْعوهُمُ ٱليَوْمَ إلى الصُّلْحِ ، عَسى أَنْ يَكونَ لَنـــا النَّصْرُ غداً ، فَضَحِكَ ٱلرَّبيعُ ، وقالَ :

ـــ أَتَرى حُذَيْفَةَ غَبِيّاً إلى هٰذا الحَدّ ؟ وَإِذا طَلَبَ مِنّا رَهائِنَ عَلى ما أَرَدْنا مِنْه ؟

فَقالَ قَيْسٌ :

ـ نُعْطيهِمْ رَهـــائِنَ مِنْ أَبْنائِنَا ، وَبِذٰلِكَ نَدْفَعُ شَرَّهُمْ عَنَّا .

فَقَالَ ٱلرَّبيع :

ـــ وَإِنْ هُمْ قَتَلُوا أَبْنَاءَنا ؟

فَأَجابَ قَيْس :

ـ إِنَّهُمْ لَنْ يَقْتُلُوا ٱلْوِلْدانَ، وَلَنْ يَصِلُوا إلى ذٰلِكَ مِنَ ٱلِاْنْتِقامِ ، لِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عاقِبَةَ الظُّلْمِ .

فَقالَ الرَّبيعُ بِغَضَب :

ـ أَجِبْني عَنْ سُؤالي : وَإِنْ هُمْ قَتَلُوا أَبْناءَنا ؟

قالَ قَيْس، وَقَدْ ظَهَرَتْ مَلامِحُ ٱلْحُزْنِ عَلى وَجْهِهِ :

ـ إِنْ هُمْ قَتَلُوا الصِّبْيانَ، فَهُوَ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ الرِّجالِ .

فَأَجابَ ٱلرَّبيع :

ـ إِنَّ مِنْ رَأْيِي الصَّبْرَ عَلى قِتالِهِمْ حَتَّى النِّهايَةِ...

فَقَالَ قَيْس :

ـ طَلَبْتَ رَأْيِي، وَذاكَ هُوَ رَأْيِي.

فَقَالَ ٱلرَّبيع :

ـ يُؤْسِفُني يا قَيْسُ أَنْ يَمْلَأَ الخَوْفُ مِنْ جُمُوعِهِمْ صَدْرَكَ ! وَلٰكِنْ ... ماذا أَعْمَلُ وَحْدي ؟ إِنَّني أَتْرُكُ ٱلْأَمْرَ لَكَ ، فَٱفْعَلْ ما تَشاء !

رَأْيٌ فاسِد ، وَصُلْحٌ حـاقِد

تَوَلَّى قَيْسٌ ٱلْأَمْرَ بَعْدَ مَا تَنازَلَ عَنْهُ ٱلرَّبِيعُ لَهُ مُرْغَماً ، وَنَزَلَ قَيْسٌ بِبَني ذُبْيانَ ، وَدَعَـــاهُمْ إِلى نَبْذِ ٱلْخِلافِ ، وَإِلْقاءِ السُّيوفِ حَقْناً لِلدِّماءِ ، فَأَجابَهُ بَنُو ذُبيَـانَ ، وَلٰكِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلى أَنْ يَضَعُوا ضَمَاناً بَـيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَقَالَ قَيْسٌ :

ـ يا بَني ذُبْيان ! خُذُوا مِنَّا رَهائِنَ إِلى أَنْ نَحْتَكِمَ ! فَقَــدْ ٱدَّعَيْتُمْ ما نَعْلَمُ ، وَما لا نَعْلَمُ ، وَٱتْرُكونا حَتَّى نَتَبَيَّنَ دَعْواكُمْ ، وَلا تَعْجَلُوا إِلى ٱلْحَرْبِ ،

فَلَيْسَ كُلُّ كَثِيرٍ غالِباً .

وَمالَ بَنو ذُبْيانَ إلى هٰذا ٱلحَلِّ ، وَطَلَبوا ٱلرَّهائِنَ عَلى أَنْ يَضَعُوها عِنْدَهُمْ ، فَٱعْتَرَضَ قَيْسٌ وَقالَ :

— لِنَضَعِ ٱلرَّهائِنَ عِنْدَ مَن تَرْضَوْنَ بِهِ وَنَرْضاه !

فَقَبِلُوا ذٰلِكَ ، وَٱتَّفَقُوا عَلى أَنْ تُوضَعَ ٱلرَّهائِنُ عِنْدَ سُبَيْعِ بْنِ عَمْرٍو الذُّبْيانيّ .

وَيَشاءُ ٱلْقَدَرُ أَنْ يَمْرَضَ سُبَيْعٌ مَرَضَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱلرَّهائِنُ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ ٱلْوَفاةُ قالَ لِٱبْنِهِ مالِك :

— إِنَّها لَمَكْرُمَةٌ لا تَفْنَى إِنْ أَنْتَ ٱحْتَفَظْتَ بِهٰؤلاءِ الصِّغار .

فَقالَ مالِكٌ :

— ما حَفِظْتَهُ أَنْتَ سَأَحْفَظُهُ أَنا !

فَقالَ سُبَيْعٌ :

ـــ كَأَنِّي بِكَ ـــ بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ ـــ قَدْ أَتاكَ خالُكَ حُذَيْفَةُ ، فَعَصَرَ عَيْنَيْهِ بِالدَّمْعِ حُزْناً عَلَيَّ ، ثُمَّ خَدَعَكَ عَنْ هٰؤلاءِ الصِّغارِ ، حَتَّى تُسَلِّمَهُم إِلَيْه ، فَيَقْتُلَهُم .

فَقالَ مالِك :

ـــ إِذاً ، أَضَعْتُ شَرَفي إِنْ فَعَلْتُ .

ـــ فَقالَ سُبَيْع :

ـــ حَقًّا إِنْ فَعَلْتَ فَلا شَرَفَ بَعْدَهَا . . . وَإِنْ غالَبُوكَ على أَخْذِهِمْ ، فَأَعِدْهُمْ إِلى قَوْمِهِم .

وَلَمَّا ثَقُلَ أَمْرُ سُبَيْعٍ ، عادَهُ حُذَيْفَةُ ، وَجَعَلَ يَبْكي وَيَقول :

- وَيْلَتاه ! لَقَدْ هَلَكَ سَيِّدُنا !

فَوَقَعَ ذٰلِكَ في قَلْبِ مالِك . وَخَدَعَتْهُ دُموعُهُ الْغَادِرَة .

وَلَمَّا هَلَكَ سُبَيْعٌ أَخَذَ حُذَيْفَةُ يَطُوفُ بِٱبْنِهِ مالِكٍ ، وَيُظْهِرُ لَهُ الوُدَّ ، وَاللِّينَ ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ ، حَتَّى قالَ لَهُ :

ــ يا مَالِك ! إِنِّي خالُكَ . وَإِنِّي أَسَنُّ مِنْكَ ، فَٱدْفَعْ إِلَيَّ هٰؤُلَاءِ الصِّبْيانَ لِيَكُونُوا عِنْدي بِأَمانٍ ، إِلَى أَنْ نَنْظُرَ في أَمْرِنا .

فَقالَ مالِك :

ــ وَلٰكِنَّهُمْ آمِنُونَ عِنْدي وَقَدْ أَوْصاني أَبِي بِأَلَّا أُخرِجَهُمْ مِنْ دِياري إِلَّا بِٱتِّفاقِ ٱلْفَرِيقَيْن .

فَأَخَذَ حُذَيْفَةُ يَزيدُ تَوَدُّداً ، وَمَكْراً ، وَقالَ :

ـ إِنَّهُ قَبيحٌ بِكَ أَنْ تَمْنَعَهُمْ عَنْ خالِك ... أَلا تَثِقُ بي ... وَاللهِ ، إِنَّهُمْ آمَنُ عِنْدي ، وَأَنا أَكْثَرُ حِفْظاً لَهُمْ مِنْك.

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يُراوِغه ، وَيَتَلَطَّفُ مَعَهُ ، حَتّى دَفَعَهُمْ مالِكٌ إِلَيْه ...

عادَ حُذَيْفَةُ بِٱلصِّبْيانِ إِلى مَضارِبِ قَوْمِهِ ، وَأَحْضَرَ أَهْلَ ٱلَّذين قُتِلوا لِيَفْعَلوا بِهِمْ ما يَشاءُونَ .

دِماءٌ تَسيل ، وَعَويلٌ وَصَهيل

وَصَلَتْ أَنباءُ هٰذِهِ ٱلْمَكيدَةِ إِلى بَني عَبْسٍ ، فَهاجَتْ صُدورُ ٱلرِّجالِ ، وَشَقَّتِ النِّساءُ الثِّيابَ حِداداً عَلى أَوْلادِهِنَّ ، وَعَلا النَّحيبُ في كُلِّ دار .

اجْتَمَعَ ٱلرَّبيعُ بْنُ زِياد إِلى قَيْس بْنِ زُهيرٍ ، وقال:

ـ أرأيتَ إلى ما ٱنْتَهى إِلَيْهِ رَأْيك؟ أَرَدْتُ مُواصَلَةَ ٱلقِتالِ فمَنَعْتَني.

فَقالَ قَيْس:

ـ ماذا يَنْفَعُ اللَّوْم، بَعْدَ هٰذا ٱلْيَوْم؟ لَقَدْ ٱقترفوا ذَنْباً لا يُمْحى، وَٱرْتَكَبوا عاراً لَنْ يُنْسَى...

فَقالَ ٱلرَّبيعُ مُتَهَكِّماً:

ـ وَماذا تَرى مِنَ ٱلرَّأْيِ ٱلْآن؟ هَلْ نُقَدِّمُ لَهُمْ رَهائِنَ أُخْرى؟

فَأَجابَ قَيْس:

ـ لَقَدْ ذَهَبَ حُكْمُ ٱلْعَقْلِ، وَجاءَ حُكْمُ السَّيْفِ، فَٱجْمَعُوا ما أَخَذْناهُ مِنَ الدِّياتِ، وَبيعُوها، وَاشْتَروا بِها سِلاحاً! إِنَّ السَّيْفَ أَفْضَلُ لَنا مِنْ مائَةِ ناقَةٍ.

ثُمَّ خَرَجَ قَيْسٌ في جَمَاعَةٍ ، يَتَحَسَّسُونَ أَخْبَارَ أَعْدَائِهِمْ ، وَإِذَا بِهِمْ يَقَعُونَ على ٱبْنٍ لِحُذَيْفَةَ ، وَمَعَهُ فَوارِسُ مِنْ بَنِي ذُبْيَانَ ، فَنَازَلُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ . وَلَمَّا سَمِعَ حُذَيْفَةُ بِمَقْتَلِ وَلَدِهِ وَرِجَالِهِ جَمَعَ قَوْمَهُ ، وَسَارَ إلى مَضَارِبِ عَبْسٍ ، وَهُمْ عَلى مَاءٍ يَسْتَقُونَ ، فَٱقْتَتَلُوا ، وكَانَ ٱلظَّفَرُ لِذُبْيَانَ ، وَرَجَعَتْ سَالِمَةً .

ثُمَّ جَدَّ حُذَيْفَةُ في إِشْعَالِ ٱلْحَرْبِ ... وَلٰكِنَّ أَخَاهُ كَرِهَ هٰذِهِ ٱلْحَرْبَ ، وَنَدِمَ عَلى مَا كَانَ ، وَدَعَا أَخَاهُ إلى الصُّلْحِ ، فَلَمْ يُجِبْهُ حُذَيْفَةُ إلى ذٰلِكَ ، وَرَاحَ يَجْمَعُ ٱلْجُمُوعَ مِنْ حُلَفَاءِ قَبِيلَتِهِ ، وَسَارَ نَحْوَ مَضَارِبِ بَنِي عَبْسٍ .

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ

لَمَّا بَلَغَ بَنِي عَبْسٍ أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا إِلَيْهِمْ تَشَاوَرُوا

بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْر :

— أَطِيعُوني ! فَوَٱللهِ لَئِنْ لَمْ تَفْعَلُوا لَأَتَّكِئَنَّ عَلى سَيْفِي حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي .

قَالُوا :

- إِنَّا نُطِيعُكَ ، فَٱمْضِ بِنا الى ما تُرِيد .

أَمَرَهُمْ بِأَنْ يُسَرِّحوا إِبلَهُم ، وَٱلضُّعَفَاءَ مِنْهُمْ في ٱللَّيْل . ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا في ٱلصُّبْحِ ، وَقَدْ مَضَتْ إِبلُهُمْ وَضُعفاؤُهُمْ .

وَعِنْدَ ٱلصَّباحِ طَلَعَتْ عَلَيْهُمُ ٱلْخَيْلُ، فَقَالَ قَيْسٌ :

— خُذُوا غَيْرَ طَرِيقِ إِبِلِكُمْ وَضُعفائِكُمْ ، فَإِنَّهُ لا حاجَةَ لِلْقَوْمِ أَنْ يُنازِلُوكُمْ . وَإِنَّما هَمُّهُم أَنْ يَمْلِكُوا عَلى أَموالِكُم .

فَتَرَكُوا إِبِلَهُم في مَراعِيها ، وَأَخَذوا طَرِيقاً آخَر. وَلَمَّا رَأَى حُذَيْفَةُ ٱلْأَثَرَ قَالَ :

ــ قاتَلَهُمُ ٱللهُ ! وَمَاذا يَرْجون لِأَنْفُسِهِمْ بَعْدَ ذَهابِ أَمْوالِهِمْ ؟

ثُمَّ ٱتَّبَعَ حُذَيْفةُ أَثَرَ ٱلْإِبِلِ بَيْنَما سارَتْ نِساءُ بَني عَبْسٍ وَٱلرِّجالُ المُحارِبونَ مِنْ وَرائِهِنَّ . وأَدْرَكَ حُذَيْفَةُ وبَنو ذُبْيانَ ٱلْإِبِلَ ، فَردُّوا أَوَّلَها عَلى آخِرِها ، وَلَمْ يُفْلِتْ مِنْها شَيْءٌ ، وَجَعَلَ ٱلرَّجُلُ مِنْهُمْ يَجْمَعُ ما قَدِرَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْإِبِلِ لِنَفْسِهِ ، فَيَذْهَبُ بِها كاسِباً. وَهٰكَذا تَفَرَّقوا ، وَذَهَبَ كُلُّ واحِدٍ بِنَصيبه.

كانَ ٱلْحَرُّ شَديداً في ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، فَقالَ قَيْسُ ٱبْنُ زُهَيْر :

ــ يا قَوْم ! إِنَّ ٱلقَوْمَ قَدْ فَرَّقَتْ بَيْنَهُمُ ٱلْغَنائِمُ ،

فَٱعْطِفوا ٱلْخَيْلَ في آثارِهِمْ.

وَجَرَتْ بِهِم ٱلْخَيْلُ، فَلَمْ تَشْعُرْ بَنو ذُبْيانَ إِلّا وَٱلْخَيْلُ وَراءَهُمْ، يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضاً، فَلَمْ يَجِدوا مَنْ يُقاتِلُهُمْ، بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَ ٱلمُقاتِلونَ، قانِعينَ بِما غَنِموا، وَوَضَعَتْ بَنو عَبْسٍ فيهِم ٱلسُّيوفَ، وَقَتَلوا مِنْهُمْ مالِكَ ٱبْنَ سُبَيْعٍ سَيِّدَ قَبيلَةِ غَطَفانَ، وَكَثيراً غَيْرَهُ، حَتّى ناشَدَتْهُمْ بَنو ذُبْيانَ، أَنْ يَكُفّوا عَنِ ٱلقَتْلِ رَحْمَةً وَحَناناً، وَٱنْهَزَمَتْ ذُبْيانُ وَحُذَيْفَةُ مَعَهُم.

وَلَمْ يَكُنْ لِعَبْسٍ هَمٌّ غَيْرَ حُذَيْفَة... إِنَّهم يُريدونَهُ حَيّاً أَوْ مَيْتاً بِأَيِّ ثَمَنٍ. فَأَرْسَلوا خَيْلَهُمْ مُجْتَهِدينَ في أَثَرِهِ، فَلَمْ يَقِفوا لَهُ على أَثَرٍ، ثُمَّ اسْتَوْقَفَهُمْ قَيْسٌ وَقال:

ـ كَأَنّي بِٱلْقَوْمِ قَدْ وَرَدُوا ماءَ الهَباءَةِ، وَنَزَلوا فيهِ،

وَكَأَنِّي بِحُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ قَدْ تَجَرَّدَ مِنْ ثِيابِهِ ، وَٱسْتَنْقَعَ في ٱلْماءِ ، مُبتَرِداً مِنَ ٱلْحَرِّ .

وَكانَ حُذَيْفةُ قَدِ اسْتَرْخى حِزامُ فَرَسِهِ ، لِشِدَّةِ ٱلْجَرْيِ ، فَنَزَلَ عَنْهُ ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ على حَجَرٍ ، لِيُخْفِيَ عَنْ أَعْدائِهِ أَثَرَ قَدَمَيْهِ ، وَلٰكِنَّهُمْ عَرَفوا أَثَرَهُ بِما تَرَكَتْهُ قَوائِمُ فَرَسِهِ مِنْ أَثَرٍ ، فَٱتَّبَعوه !

وَمَضى حُذَيْفَةُ ، بَعْدَ أَنْ ظَنَّ أَنَّهُ ٱبْتَعَدَ عَنِ ٱلْخَطَرِ ، حَتّى وَرَدَ ماءَ ٱلْهَباءَةِ ، وَقَدِ ٱشْتَدَّ ٱلْحَرُّ عَلَيْهِ ، فَرمى بِنَفْسِهِ ، وَمَعَهُ أَخوهُ حَمَلُ بْنُ بَدْرٍ وَجَماعَةٌ مِنْ أَصحابِهِ ، وَقَدْ طَرَحوا ٱلسُّروجَ عَنْ ظُهورِ خَيْلِهِمْ ، وَأَغْمَدوا سُيوفَهُمْ ، وَسَقَطوا في ٱلْماءِ يَبْتَرِدونَ ، وَخَيْلُهُمْ تَتَمَرَّغُ عَلى الرِّمالِ .

تِلْكَ هِيَ عاقِبَةُ ٱلْبَغْي

وَلَمّا ٱقْتَرَبَ مِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ وَأَصحـــابُهُ أَبْصَرَهُمْ حَمَلُ بْنُ بَدْرٍ ، فَأَسْرَعَ إِلى جَماعَتِـــهِ ، فَقَالَ لَهُمْ :

ـــ مَنْ أَبْغَضُ النّاسِ أَنْ يَقِفَ على رُؤوسِكُم ؟

فَقالوا :

ـــ قَيْسُ بْنُ زُهَيْر وَٱلرَّبيعُ بْنُ زِياد .

فَقالَ :

ـــ هٰذا قَيْسُ بْنُ زُهَير قَدْ أَتاكُم .

وَلَمْ يَنْتَهِ مِنْ قَوْلِهِ حَتّى وَقَفَ قَيْسٌ وأَصْحابُهُ ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَيْلِهِمْ ، كَيْلا يَفِرُّوا ، وَحَمَلَ أَحَدُهُمْ عَلَيْها

فَفَرَّقها وَأَبْعَدَهـا ، وَٱقْتَحَمَ بَنو عَبْس في ٱلْجُنْدِ ، وَهَمْ يُنادون :

ــ لَبَّيْكُمْ، لَبَّيْكُمْ يا أَطفالَنا الصِّغارَ !

وَٱلْتفَتَ قَيْسُ إِلَيْهِمْ وقالَ :

ــ كَيْفَ رَأَيْتُمْ عاقِبةَ البَغْي ؟

فَقالَ حُذَيْفَة :

ــ يا بَني عَبْس ! أَيْنَ ٱلْعُقولُ وَٱلأَحْــلامُ ؟ ناشَدْتُكَ ٱللهَ وَٱلْقُرْبى يا قَيْس !

فَٱشْمأَزَّ حَمَلُ بنُ بَدْرٍ مِنْ ذُلِّ أَخيهِ، وَضَرَبَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، وَقال :

ــ دَعْ عَنْكَ مَعْسولَ ٱلْكَلام !

ثُمَّ قالَ حُذَيفَةُ لِقَيْس :

ـ إِنّنـا مُسْتَعِدُّونَ أَنْ نُقَدِّمَ لَكُمْ مِنْ صِبْيانِنا عَدَدَ مَنْ قَتَلْناهُمْ مِنْ صِبْيانِكِمْ ، وَنَرُدَّ لَكُمْ قيمَـةَ ٱلسِّباق .

فَٱسْتَخَفَّ قَيْسٌ بِقَوْلِ حُذَيْفَةَ ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ يُنادي :

ـ لَبَّيْكُمْ ، لَبَّيْكُم ، أَيُّها ٱلْأَبرِياء !

قالَ حُذَيْفَة :

ـ إِذاً ، إِنَّكَ عازِمٌ عَلى قَتْلي ، وَٱللهِ ، لَئِنْ قَتَلْتَني ، لا تَصْلُحُ قَبيلَةُ غَطَفانَ بَعْدَها أَبداً .

فَقالَ قَيْس :

ـ أَبْعَدَ ٱللهُ غَطَفَانَ وَلا أَصْلَحَها !

ثُمَّ جاءَ قَرْوَاشٌ مِنَ خَلْفِ حُذَيْفَةَ ، وَكانَ قَدْ رَبَّاهُ في بَيْتِـهِ ، وَأَحسَنَ إِلَيْهِ ، فَقالَ لِحُذَيْفَـةَ بَعْضُ أَصْحابِهِ :

ــ إِحْذَرْ قَرْوَاشاً !

فَظَنَّ حُذَيْفَةُ أَنَّهُ جاءَ يَشْكُرُهُ على إِحْسانِهِ ، فَقالَ :

ــ خَلُّوا بَيْنَ قَرْواشٍ وَظَهْرِي ! إِنَّهُ عِنْدي بِمَنْزِلَةِ وَلَدي .

فَإِذا بِقَرْواشٍ يَهْوِي عَلَيْهِ بِخِنْجَرٍ عَرِيضٍ ، أَصابَ بِهِ ظَهْرَهُ . وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ آخَرون بِسُيوفِهِمْ ، فَقَتَلوه ، وَقَتَلوا أَخاهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْقوا مِنْ أَهْلِ حُذَيْفَة أَلَّا وَلَدَهُ حِصْناً ، لِأَنَّهُم أَشْفَقُوا عَلى شَبابِه .

وَوَقَفَ قَيْسٌ على جُثَّةِ حُذَيْفَةَ وَكَأَنَّ ٱلنَّدَمَ حَرَّكَ ضَميرَهُ ، وَوَبَّخَهُ لِقَسْوَتِهِ على مَنْ طَلَبَ الرَّحْمَةَ مِنْهُ ، فَقَالَ :

ــ لَقَدْ شَفَيْتُ نَفْسي مِمَّنِ ٱعْتَدَى وَظَلَم . . .

وَلٰكِنَّني لَمْ أَكُنْ إِلَّا كَمَنْ قَطَعَ يَدَهُ بِسَيْفِهِ ، فَلا كانَ داحِسٌ ، وَلا كانَتِ ٱلْغَبْراءُ !

نَدَمٌ عَلى سَفْكِ ٱلدَّم

ثُمَّ إِنَّ بَني عَبْسٍ نَدِمُوا عَلى ما فَعَلُوا بِذُبْيانَ ، في ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، وَلامَ بَعْضُهُم بَعْضاً ، وَفي ٱلْوَقْتِ ذاتِهِ ٱجْتَمَعَتْ ذُبْيانُ إِلى سِنانِ بْنِ أَبي حارِثَةَ ، وَشَكَوا إِلَيْهِ ما نَزَلَ بِهِمْ فَأَعْظَمَ ذٰلِكَ وَراحَ يَذُمُّ عَبْساً عَلى جَهْلِها وَظُلْمِها ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَرَبَ ، وَيَأْخُذَ بِثَأْرِ ذُبْيانَ ، وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ ، فَاجْتَمَعَ مِنَ ٱلْخَلْقِ عَدَدٌ لَا يُحْصَى ، وَقَبْلَ ٱلْمَسيرِ أَوْصَى أَصْحابَهُ :

ــ إِيّاكُمْ وَالتَّعَرُّضَ لِلْأَمْوالِ وَٱلْغَنائِم ! وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ ، لِأَنَّ مَعَ الصَّبْرِ يَكُونُ النَّصْر .

وَساروا إلى بَني عَبْسٍ ...

جاءَتِ ٱلْأَخْبارُ بَني عَبْسٍ بِمَسيرِ هٰذا ٱلْجَيْشِ ٱلْكَثيفِ إِلَيْهِمْ، فَتَشاوَروا فِيما بَيْنَهُمْ فَقالَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْر:

ــ الرَّأْيُ أَنَّنا لا نَلْقاهُمْ ، فَإِنَّنا قَدْ ظَلَمْناهُمْ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا طالِبُ دَم وَثأْرٍ مِنّا . وَقَدْ رَأَوْا ما نالَهُمْ بِٱلْأَمْسِ بِسَبَب اشْتغالِهِمْ بِٱلنَّهْبِ وَٱلْمالِ، فَلِذٰلِكَ لَنْ يُلْهِيَهُم ٱلْمالُ عَنّا. وَٱلذي يَنْبغي لَنا أَنْ نَفْعَلَهُ أَنّنا نُرْسِلُ نِساءَنا وأَطفالَنا وَأَمْوالَنا إلى بَني عامِرٍ لِيكونوا في حِمايَتِهِمْ ، ولا يَبقى مِنَّا إِلّا أَهْلُ ٱلقُوَّةِ وَٱلصَّبْرِ عَلى ظُهورِ ٱلْخَيْلِ ، ونُحاوِلُ أَنْ نُؤَخِّرَ ساعَةَ القِتالِ ، فَإِنْ أَبَوا إِلّا ٱلقِتالَ كُنَّا قَدْ أَمَّنّا عَلى أَهْلِنا وَأَمْوالِنا، وَقاتَلْناهُمْ وَصَبَرْنا لَهُمْ ، فَإِنْ كانَ ٱلظَّفَرُ لَنا فَهُوَ ٱلَّذي نُريدُ ، وَإِنْ كانَتِ ٱلْحَرْبُ عَلَيْنا ٱنْسَحَبْنا وَلَحِقْنا بِأَمْوالِنا .

فَعَلُوا ذٰلِكَ ، وَأَرْسَلوا ٱلْأَمْوالَ وَٱلْأَهْلَ إِلى بني عامِرٍ ، وَٱسْتَعَدُّوا عَلى ظُهورِ خَيْلِهِمْ لِلِقاءِ بَني ذُبْيانَ ، وَما هِيَ إِلّا ساعاتٌ حَتّى كانَ ٱللِّقاءُ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ ، فَٱقْتَتَلوا قِتالاً شَديداً ، في ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّل ، وَٱفْتَرَقوا بلا نَتيجَةٍ لأَحَدِهِما .

وَلَمّا كانَ ٱلْغَدُ عادوا إِلى ٱللِّقاءِ ، فَٱقْتَتَلوا أَشَدَّ مِنَ ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّلِ ، وَظَهَرَتْ في هٰذا ٱلْيَوْمِ شَجاعَةُ عَنْتَرة ٱلَّذي كانَ لَهُ ٱلْفَضْلُ في ثَباتِ بَني عَبْسٍ عَلى ٱلْقِتال ، فَلَمّا رَأى بَنو ذُبْيانَ شِدَّةَ ٱلْقِتال ، وَكَثْرَةَ ٱلْقَتْلى لاموا قائِدَهُمْ سِنانَ بْنَ أَبي حارِثَةَ ، وَتَشاءَموا مِنْهُ ، وَأَشاروا عَلَيْهِ بِحَقْنِ ٱلدِّماءِ ، وَٱلْعَوْدَةِ إِلى السِّلْمِ ، وَلا يُريدونَ هٰذِهِ ٱلْحَرْبَ ، فَتَرَكَهُمْ وَرَحَلَ عائِداً إِلى دِيارِهِ .

إرْجعوا إلى إخوانِكُم !

ما كانَ بَنو عَبْسٍ لِيَناموا عَلى هٰذِهِ ٱلنِّهايَةِ ٱلَّتي رَأَوْا فيها أَعْداءَهُمْ يَتَفَرَّقونَ عَنْهُمْ ، وَقَدْ قَدَّروا أَنَّ عَوْدَتَهُمْ إلى ٱلْقِتالِ لا بُدَّ أَنْ تَكونَ قَريبةً . لِذٰلِكَ عَزَموا عَلى هَجْرِ دِيارِهِمْ ، وَٱلِٱلْتِجاءِ إلى ٱلْقَبائِلِ ٱلصَّديقَةِ ٱلَّتي تَحْميهِمْ ، وَتَرْعى ذِمَّتَهُم ، فَٱنْطَلَقوا هائِمينَ عَلى وُجوهِهِم ، يَنْزِلونَ هٰذا ٱلْمَكانَ حيناً وَيَتْرُكونَهُ حيناً ، حَياةُ تَشَرُّدٍ لا ٱسْتِقْرارَ فيها وَلا اطْمِئْنان .

وَما زالوا يَرْحَلونَ مِنْ قَبيلَةٍ إلى قَبيلَةٍ ، يَطْمَعُ فيهِم ٱلْأَعداءُ ، وَيَتَخلَّى عَنْهُمُ ٱلْأَصْدِقاءُ ، وَتَتابَعَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱللَّيالي عَلى مَسيرَتِهِم . الرِّجالُ على ظُهورِ ٱلْخَيْلِ ، وَالنِّساءُ عَلى ظُهورِ الإِبِلِ ، حَتَّى قالَتْ بِنْتُ قَيْسٍ لِأَبيها :

— يا أَبَتِ ! هَلْ تَسيرُ ٱلْأَرْضُ ؟

فَأَدْرَكَ أَنَّ النِّساءَ قَــدْ أَتعَبَهُنَّ ٱلسَّيْرُ في اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، فنادَى قَوْمَه :

ـــ أَنِيخوا الإِبِلَ !

فَأَناخُوها ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ :

ـــ كُلُّ شَيْءٍ يُحارِبُنا ، لَقَـدْ مَلِلْتُم وَمَلِلْنـا ، لا خَيْرَ في هٰذِهِ ٱلْحَياةِ ، بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقَ عَنَّا إِخْوانُنـا وَأَصْدِقاؤُنا ، حَتَّى أَصْبَحْنا لاجِئِينَ بِلا أَوْطانٍ ، إِرْجِعُوا إِلى إِخْوانِكُم مِنْ بَني ذُبْيانَ ، فَٱلْمَوْتُ مَعَهُم خَـيْرٌ مِنَ ٱلْبَقاءِ مَعَ غَيْرِهِم .

فَقالُوا :

ـــ بِالخَيْرِ أَشَرْتَ ... سِرْ مَعَنَا !

فَأَجابَهُمْ قَيْسٌ :

ـــ لا وَٱللهِ . ما تَنْظُرُ في وَجْهِي ٱمْرَأَةٌ ذُبْيانِيَّةٌ

قَتَلْتُ أَباها أَو أَخاها ، أَوْ زَوْجَها ، أَوْ وَلَدَهـــا إِلَّا تذكَّرَتْ مـــا صَنَعْتُ بِها ، إِذْهَبُوا أَنْتُمْ وَٱتْرُكُوني وَشأْني! لَأَنْ يَموتَ قَيْسٌ وَحْدَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَموتَ قَبِيلَتُهُ كُلُّها مَعَه .

إِذا لَمْ تزَوَّجْ سَيِّدَ ٱلْعَرَبِ فَمَنْ تُزَوِّج؟

كانَ ٱلْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ يُسامِرُ صاحِبَهُ خارِجَةَ بْنَ سِنان ، وَقَدْ تَناوَلَا حَدِيثَ ٱلْقِتَالِ بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيانَ .

وَفَجْأَةً ، قَـالَ ٱلْحَارِثُ لِصَاحِبِهِ ، وَهُوَ يَعْتَزُّ بِما لَهُ مِنْ نَسَبٍ وَمَنْزِلَةٍ في قَبِيلَتِهِ غَطَفَانَ :

ـــ يا خارِجَةُ ! هَلْ تَعْرِفُ أَحداً في العَرَبِ أَخْطِبُ اَلَيْهِ ٱبْنَتَهُ فَيَرُدَّني ؟

قالَ خارِجَةُ :

ـ نَعَمْ ، هُوَ أَوْسُ بْنُ حارِثَةَ الطَّائِيّ .

فَلَمْ يَزِدِ ٱلْحارِثُ عَلى أَنْ قالَ :

ـ إِرْحَلْ مَعي !

ظَنَّ خارِجَةُ أَنَّ صاحِبَهُ ٱلْحارِثَ قَدْ تَأَلَّمَ لِهٰذا ٱلْجَوابِ ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ : أَيْنَ يَتَّجِهُ ؟ وَٱنْطَلَقا مَعاً .

ـ لٰكِنَّ ٱلْحارِثَ ٱلَّذي صَغُرَتْ نَفْسُهُ لَدَيْهِ عِنْدَ هٰذا ٱلْجَوابِ ، لَمْ تَسْتَقِرَّ لَهُ حالَةٌ حَتَّى يَأْتِيَ « أَوْسَ ٱبْنَ حارِثَةَ » وَيَخْطِبَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ . وَما زالا حَتَّى أَتَيا أَوْساً في مَضارِبِهِ ، فَوَجَداهُ وَدَخَلا عَلَيْهِ بَيْتَهُ ، فَلَمَّا رَأَى أَوْسٌ ٱلْحارِثَ بْنَ عَوْفٍ داخِلاً عَرَفَهُ ، وَتَلَقَّاهُ بِٱلتَّرْحيبِ. وَبَعْدَ أَنِ ٱسْتَقَرَّ بِهِما ٱلْمُقامُ ٱلْتَفَتَ أَوْسٌ ، إِلى ٱلْحارِثِ وَسَأَلَه :

ـــ ماذا جاءَ بِكَ عَلى غَيْرِ مَوْعِدٍ ؟

فَقَالَ ٱلْحَارِث :

ـــ جِئْتُكَ خاطِباً .

سادَ الصَّمْتُ بُرْهَةً ، لِيَسْمَعَ الحارِثُ جَوابَ صَاحِبِهِ:

ـــ لَسْتَ هُناكَ !

لَمْ يَبْقَ للحارِثِ وَجْهٌ لِلْبَقاءِ ، فَٱنْصَرَفَ كَمَا جَاءَ !

وَدَخَلَ أَوْسٌ عَلى ٱمْرَأَتِهِ مُغْضَباً ، فَسَأَلَتْه :

ـــ مَنْ هٰــذا ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي وَقَفَ عَلَيْكَ ، وَلَمْ يُطِلْ ، وَلَمْ تُكَلِّمْهُ ؟

قالَ أَوْسٌ :

ـــ ذَاكَ سَيِّدُ ٱلْعَرَبِ ٱلْحارِثُ بْنُ عَوْف .

فَقالَتْ :

ــ وَلٰكِنْ، لِمَاذا لَمْ تَسْتَنْزِلْهُ وَهُوَ سَيِّدٌ في قَوْمِهِ؟

قال لها :

ــ إِنَّهُ جاءَني خاطِباً وَرَدَدْتُه .

فَقَالَتْ :

ــ إذا لَمْ تُزَوِّجْ سَيِّدَ ٱلْعَرَبِ فَمَنْ تُزَوِّجُ ؟

صَمَتَ أَوْسٌ قَلِيلاً :

ــ قَدْ كانَ ذٰلِكَ ، وَأَنا نادِمٌ عَلى رَدّي لَه ... وَما ٱلْحِيلَةُ ؟

فَقَالَتْ :

ــ يَجِبُ عَلَيْكَ أَن تَتَدارَكَ ما كانَ مِنْكَ . إِتْبَعْهُ وَأَعِدْهُ واعْتَذِرْ لَهُ !

رَكِبَ أَوْسٌ وَٱنْطَلَقَ وَرَاءَهُمـا ، حَتَّى أَدْرَكَهُما فِي ٱلطَّرِيقِ ، وَٱسْتَوْقَفَهُما ، وَٱعْتَذَرَ لِلحارِثِ عَمَّا كانَ مِنْهُ ، وَعادُوا عَلى ٱلْأَثَرِ . وَخَيَّرَ أَوْسٌ الحارِثَ بَيْنَ بَناتِهِ فَٱخْتارَ الصُّغْرى «بُهَيْسَة» . فَأَمَرَ أَوْسٌ أُمَّها أَنْ تُهَيِّئَها ، وَتُصْلِحَ مِنْ شَأْنِها ، لِتُسافِرَ مَعَ زَوْجِها الحارِثِ .

أَعُرْسٌ عَلى دِماء

بَلَغَ ٱلْحارِثُ مَضارِبَ قَوْمِهِ ، وَأَحْضَرَ ٱلْإِبِلَ وَٱلْغَنَمَ ، وَدَخَلَ عَلى ٱلْفَتاةِ ، وَقالَ لَها :

ـــ ها قَدْ أَحْضَرْنا مِن ٱلْمالِ ما قَدْ تَرَيْنَ ، وَهٰذِهِ وُفودُ ٱلْعَرَبِ قادِمَةٌ مِنْ كُلِّ مَكانٍ لِلتَّهْنِئَةِ. لَقَدْ تَمَّ ٱلْيَوْمَ كُلُّ ما تَشْتَهِينَ .

اْلتَفَتَتْ إِلَيْهِ بُهَيْسَةُ قائِلَة :

ــ لَقَد ذَكَرْتَ لي مِنَ الشَّرَفِ ما لا أُراهُ فيك .

فَاْهتَزَّ الحـارِثُ مُغْضَباً ، وَلٰكِنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ ، وَقـال :

ــ وَماذا رَأَيْتِ فِيَّ ما يُخالِفُ اْلشَّرَف ؟

قالَتْ :

ــ أَتُقْدِم عَلى الزَّواج ، وَاْلعَربُ يَقْتُلُ بَعْضُها بَعْضاً ؟ أَعُرْسٌ عَلى دِماءٍ ؟ وَأَلْحانٌ تَهْزجُ عَلى أَشْلاء ؟

إِلْتَفَتَ اْلحارِثُ إِلَيْها ، وَقَدْ راعَهُ قَوْلُها :

ــ وَماذا تُريدينَ أَنْ أَفْعَـــلَ ؟ أَنَّهُم يَقْتَتِلونَ ، وَاْلقِتالُ طَبيعةٌ فيهم .

فقالَتْ :

ــ بِئْسَ هٰذا العُذْرُ ! أُخْرُجْ إلى هؤلاءِ ٱلْقَوْمِ فَأَصْلِحْ بَيْنَهُم ! أَلَسْتَ سَيِّدَ قَوْمِك ؟ أَلَسْتَ بِذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي تُسْمَعُ كَلِمَتُه ؟ أَلَيْسَ لَكَ هٰذِهِ ٱلْأَموالُ ٱلوافِرَةُ ، وَٱلْإِبِلُ ٱلسّارِحَةُ ، ماذا عسى تَنْفَعُ ٱلْأَموالُ صاحِبَها إذا لَمْ يُنْفِقْها في وُجوهِ ٱلْخَيْرِ ، وَتَوْطِيدِ ٱلسِّلْمِ بَيْنَ ٱلْإِخْوانِ ؟ تَحَرَّكْ يا حارِثُ ! وَٱدْعُ ٱلْقَوْمَ إلى السِّلْمِ في يَوْمِ عُرْسِكَ ، فَيَكُونَ ٱلْعُرْسُ عُرْسَكَ وَعُرْسَ ٱلْعَرَبِ .

خَرَجَ ٱلْحارِثُ يُفَكِّرُ في هٰذا ٱلْخَطْبِ ٱلْعَظِيمِ ، وَمَشَى في وُفودِ ٱلْقَوْمِ ، وَفِيهِمْ وَفْدُ بَني عَبْسٍ وَذُبْيانَ ، يَدْعُو سادَتَهُمْ وَرِجالَهُمْ إلى ٱجْتِماعٍ طارِىءٍ ، حَتَّى إذا ٱجْتَمَعُوا بادَرَهُمْ بِقَوْلِهِ :

ـــ لا عُرْسَ ٱلْيَوْمَ !

فَهِمَ ٱلنَّاسُ ، وَأَكْبَروا ما سَمِعُوهُ مِنْهُ ، وَهُمْ يَتَسَاءَلُون :

ـــ لِماذا ؟ لِماذا يا حارِثُ ؟

فَقالَ ٱلْحارِثُ :

ـــ إنَّ هُنالِكَ ٱمْرَأَةً رَأَيْتُها أَحكَمَ مِنَّا عَقْلاً ، وَأَبْعَدَ هِمَّةً ، أَبَتْ عَلَيَّ هـذا ٱلْعُرْسَ ، وَفي قَبائِلِنـــا رِجالٌ يَهْدُرونَ دِماءَهُمْ ، وَيَتامى يَفْقِدونَ آباءَهُمْ ، وَنِساءٌ يُسْلِمْنَ أَزْواجَهُنَّ إلى ٱلْقَتْلِ . يَأْبي ٱلْحارِثُ أَنْ يَكُونَ لَهُ عُرْسٌ ، قَبْلَ أَنْ تَحْيا ٱلْقَبائِلُ عُرْسَ صُلْحِها وَسَلامِها ، ماذا تَقولون ؟

ٱلْكُلُّ يُفَكِّرُ في إنْهـــاءِ ٱلْقِتالِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لا

يَرْضونَ أَنْ تذْهَبَ دِمـــاءُ قَتْلاهُمْ هَدْراً . وَإِذا كانَ هُنالِكَ صُلحٌ فلْتَكُنِ ٱلْقَتْلى بِٱلتَّساوي !

أجابَ ٱلْحارِثُ مُغْضَباً :

ــ وَلٰكِنْ... لَنْ يَكُونَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ قَتْلى . لَقَدْ كَفانا ما أَكَلَتْهُ ٱلسُّيوفُ مِنْ لَحْمِنا . إِنَّ ٱلْحارِثَ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ ، وَما تَمْلِكُ يَداهُ ثَمَناً لِشراءِ هٰذا ٱلصُّلْحِ .

وَلَمْ يَأْتِ ٱلْمَساءُ حَتّى ٱتَّفَــقَ وَفودُ ٱلْقَبائِلِ ٱلْمُتَنازِعَةِ بَيْنَهُمْ على صُلحٍ شَريفٍ ، تَحَمَّلَ فيهِ ٱلْحارِثُ ٱبْنُ عَوْفٍ دِياتِ ٱلْقَتْلى مِنْ مالِهِ وَإِبلِهِ ، وَأَبى هَرِمُ بْنُ سِنان أَنْ يَكونَ هٰذا ٱلْفَخْرُ لِلحارِثِ وَحْدَهُ ، فَشارَكَهُ في تَحَمُّلِ دِياتِ ٱلْقَتْلى بِمالِهِ وَإِبلِهِ ، وَرَنَّتْ في ٱللَّيْلِ ، مَرَّةً ثانِيَةً ، أَلْحانُ ٱلْعُرْسِ مَمْزوجَةً بِأَلْحانِ الصُّلْحِ ،

وَأَصْبَحَتْ مَثَـــلاً رائِعاً لِلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلَّتي شارَكَتْ شَعْبَها آلامَهُ ، وَشارَكَها شَعْبُها أَفراحَها .

الدَّرْسُ ٱلْأَكْبَر

ما كانَ أَحقَرَ ٱلسَّبَبَ في هٰـذِهِ ٱلْحَرْب ! وَما كانَ أَفجَعَها حَرْباً فَرَّقَتْ شَمْلَ ٱلْأَقرِباءِ، وَحَرَّضَتِ ٱلْأَصدِقاءَ.

وَلَعَلَّ أَحسنَ عِظَةٍ يُعْطيها هٰذا ٱلدَّرْسُ، ما أَعطاهُ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ نَفْسُه حينَ خَرَجَ عَلى وَجْهِـهِ وَحْدَهُ ، حَتّى لَحِقَ بِقَبيلَةِ النَّمِرِ ، فَقالَ لَهُمْ :

ـ يا مَعْشَرَ النَّمِرِ ! أَنا قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ غَريبُ حَرْبٍ ، لا أُقيمُ فيكُم حَتّى أُخبِرَكُمْ بِأَخلاقي . إِنّي ٱمْرُؤٌ غَيُورٌ ، فَخورٌ ، أَنِفٌ ، وَلَسْتُ أَفْخَرُ حَتّى أَبتلي ، ولا أَغارُ حَتّى أَرى ، ولا آنَفُ حَتّى أُظلَم ...

إنّي آمُرُكم بخِصالٍ ، وأنهاكُم عَنْ خِصالٍ ... عَلَيْكم بِٱلأَناةِ وَالتَّرويّ . فبِهِما تُدْرَكُ ٱلحاجَةُ ، وعَلَيْكُمْ بٱخْتِيارِ ٱلسَّيِّدِ ٱلَّذي لا يَعيبُهُ أَحدٌ ، وَعَلَيْكُمْ بِٱلْوَفاء ، فَبِهِ تَتَعايَشُون ، وإعطاء مَنْ تُرِيدونَ إعْطاءه قَبْلَ ٱلمَسْألَةِ ، وَمَنْعِ مَنْ تُرِيدونَ مَنْعَهُ قَبْلَ ٱلإِلْحاحِ ، وَإِيّاكُمْ وَالرِّهانَ ، فَبِهِ فَقَدْتُ مالِكاً أخي ، وَإِيّاكُمْ وَالبَغْيَ فَإِنَّهُ قَتَلَ زُهَيْراً أَبي ، وَإِيّاكُمْ وَالإِسْرافَ في الدِّماء ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَوْرَثَني ٱلعار ...

سلاسِل تطلب من دار العلم للملايين

علوم ومعارف



١ — الماء ، حياة ونور
٢ — النفط ، ثروة وقوة
٣ — الكهرباء ، نور وحركة
٤ — السفن ، اسفار وتجارة
٥ — الطعام ، حياة وقوة
٦ — وسائل النقل والانتقال
٧ — الثياب ، دفء وجمال
٨ — المعادن ، صلابة وزينة
٩ — الزراعة ، غذاء وعافية
١٠ — الحيوانات ، أُلفة وغذاء

اساطـــير



١ — شيخ الجبل
٢ — سلطان باتان
٣ — تماري والإوزّات السبع
٤ — الفانوس السحري
٥ — بلاد السلام
٦ — تفاحة الذهب
٧ — خوانو الشجاع
٨ — ين سو
٩ — نمر الغابة
١٠ — الهندي النحات .

سلاسِل تطلب من دار العلم للملايين

حكايات شهرزاد



١ – الدجاجة البيضاء
٢ – الامير بهلول
٣ – مغامرات بشوش
٤ – الغابة المسحورة
٥ – هبلان
٦ – هزيمة التنين
٧ – الارنب مامبو
٨ – مسرور ونبتة الحياة
٩ – جوقة الحمار
١٠ – اميرة النحل
١١ – المغامرون
١٢ – رهوان القنوع
١٣ – الهر الذكي
١٤ – بنانه
١٥ – الاخوة الماهرون

حكايات جدتي



١ – ليلى ذات القبعة الحمراء
٢ – المعزاة وصغارها
٣ – الدببة الثلاثة
٤ – فتاة الغابة
٥ – القزم الفهيم
٦ – انتصار الحمار
٧ – المرآة السحرية
٨ – ام الرماد
٩ – الامير السعيد
١٠ – الدب الوفي
١١ – بيت الساحرة
١٢ – حكاية تمثال
١٣ – جلد الحمار
١٤ – كوكو ذو الضفيرة
١٥ – الزهرة المسحورة

ايام العرب

١ — يوم البسوس (الجزء الأوّل) .

٢ — يوم البسوس (الجزء الثاني) .

٣ — يوم داحس والغبراء .

٤ — يوم بدر .

٥ — يوم أُحد .

٦ — يوم فتح مكّة .

٧ — يوم حُنين .

٨ — أيّام العراق .

٩ — يوم القادسية .

١٠ — يوم اليرموك .

حياة الانسان

١ ــ في القُطب الشّماليّ .

٢ ــ في مَنازل الهُنود الحُمْر .

٣ ــ في الصحراء .

٤ ــ على شَواطِىء البِحار .

٥ ــ في مَنابت الأُرُزّ .

٦ ــ في الجبـــال .

٧ ــ في الأدغال

٨ ــ في المدن .

